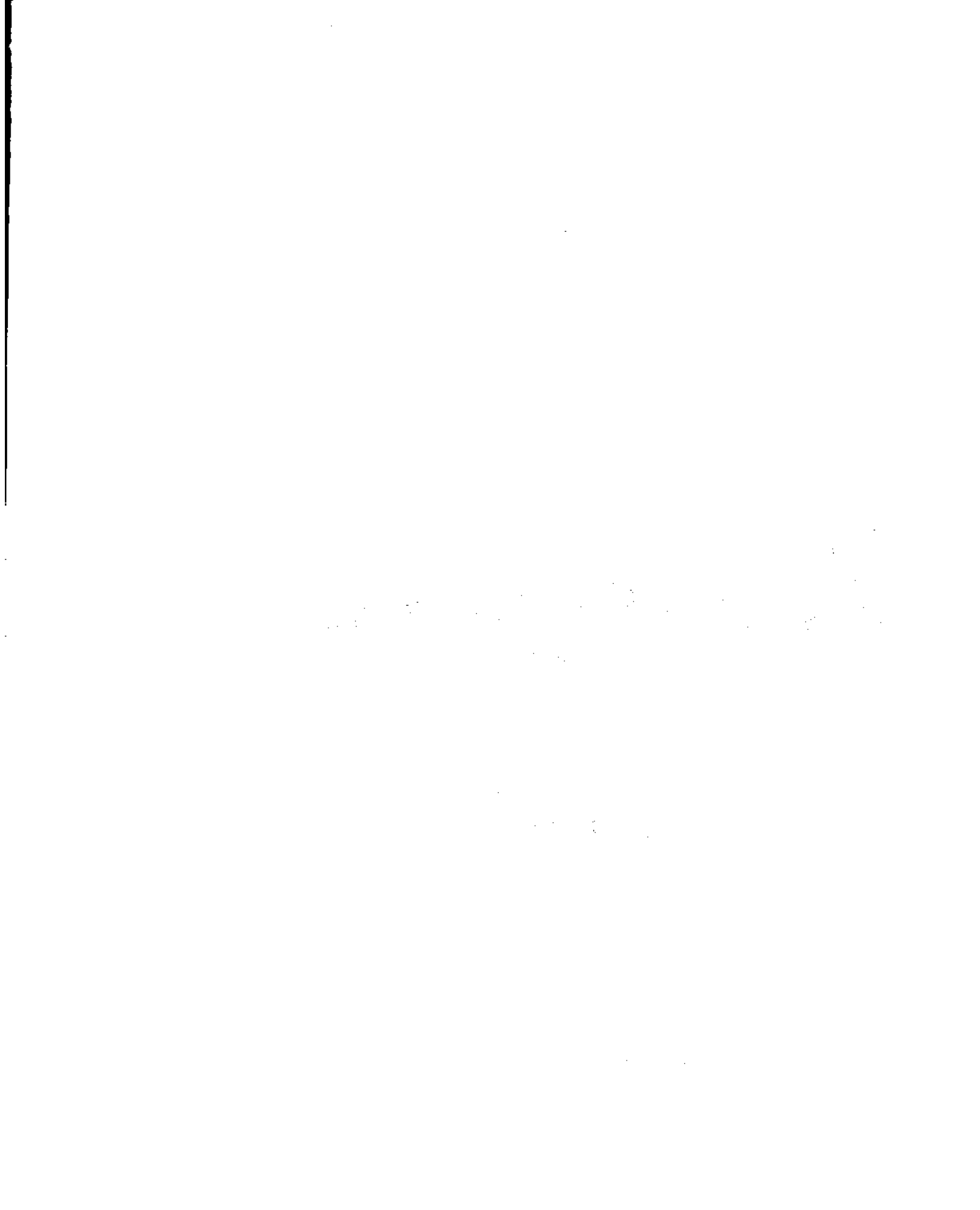
صباح وشتاء

نصوص

د. سيد البحراوى



الكاميرا المغلقة

قادنى صديقى أمين الديب ، الذى مات منذ عشرين عامًا إلى سعدى يوسف : «كل حانات العالم» . هذا الصباح عثرت بين أوراقى القديمة المهملة على رسائل أمين وقصائده .

عشرون عاما وأنا لا أهتدى إليها ، بل إن اسمه نفسه ضاع من ذاكرتى ، فى المرات التى تذكرت فيها شكله وهيئته ووجهه المنمش ، اليوم وجدته ، وجدت بعضاً من نفسى . كان شاعراً واعداً ، ولكن رسائله كانت أفضل من شعره المثقل بالرومانسية . فى إحدى الرسائل جملة ينصحنى فيها ، وكان ذلك منذ واحد وعشرين عاماً ، ألا أبقى كالكاميرا المغلقة ، لست أذكر حواراً دار بيننا حول هذا المعنى .

فى رسالة أخرى وجدته يتحدث عن أن الكاميرا المغلقة لا تلتقط شيئاً ولاتبوح بأسرارها فإذا فتحت ، والتقطت صورة ، فإن هذه الصورة تبقى فى الذاكرة .

كان يتحدث عن أن ما يلقاه القلب ، وهو الأهم ، لا يضيع . قادتنى رسائل أمين إلى الشعر. إلى سعدى يوسف ، وحواره مع الأخضر بن يوسف، وقادنى حواره إلى الكاميرا المفتوحة. فتح سعدى يوسف الكاميرا المغلقة ، وسجل من ذاكرتها (التى كان واضحًا أنها التقطت كثيراً رغم إغلاقها) ما لم تستطع إعلانه آنذاك . سجل صراع العالم الخارجى . وصراع الداخل بين الأخضر وسعدى . بين المغلق

والمفتوح، بين الوعى واللاوعى ، بين الجماعى المفروض والفردى الخاص ، الذى تتم به .

وقادنى سعدى إلى السؤال عن تحطيم القفل الذى يغلق الكاميرا. هل هو فقط العالم الخارجى ؛ أم أيضاً أقفالنا الداخلية ، التى وإن كانت ميراثاً ممتداً من الخارج ، قد تكون أكثر خطورة ، وأصعب مواجهة ؛ وأن تحطيمهما قد يكون هو بذاته الطريق الصحيح لمعرفة كيف تحطم أقفال الخارج ! هل هذا مهرب أم بداية ؟



صباح وشتاء

انتهيت – وأبى – من تناول طعام الإفطار ، أكلت بيضة وقطعة من الجبن وبنينة ، وأكل هو بنينة وقطعة من الجبن ، ناولته كوب الماء، وقبل أن يشرب سأل أين الحبوب فأحضرتها له . وقبل أن يفضها ليتناول واحدة قال : لولا هذه الحبوب كنت ضعت ... اللهِ أعلم أنها أفادتنى فائدة كبرى فى كل شئ .

كان الصباح المبكر . وكان الجو حاراً . نظرت أمامى متأملاً الشجرة أمام المنزل فى الناحية الأخرى من الطريق – على الترعة – تطل من الباب المفتوح خضراء بدرجات قاتمة فى الجزء الأعلى ثم فاتحة فى الجزء الأسفل . فكرت أنها تكون دائماً خضراء ، ولا يسقط ورقها أبداً . وأمعنت التفكير محاولاً أن أتذكر إن كان ورقها يسقط فى الشتاء ... ولم أستطع التذكر فقررت أن أسأله .

قلت الشجرة التى أمامنا شجرة كافور أليس كذلك ؟ قال لا .. توت، ثم قال : هل كبرت ؟ قلت نعم كبرت جداً . فقال ليتها كانت التى أمامنا .. كانت قد ظللت علينا ومنعت الشمس والتراب .

أمّنت على كلامه وصمت .. وكنت ما أزال متردداً فى سؤاله خشية أن يفتضح جهلى وأخيراً سألته . طبعا ورقها يقع فى الشتاء ... قال طبعاً .



نظـــارة

عندما فتحت الباب لأحضر نظارتى ، انتبه وسأل : من؟

قلت : أنا .

قال : هل نسيت شيئاً ؟

قلت : نعم نسيت النظارة .

كان قد سمعنى أحرك زر الكهرباء لأعلى ، ثم لأسفل .

قال : أغلق الباب خلفك . خرجت من الحجرة وكأنى انتبهت لأول مرة أنه يتألم . ها هو يقظ فى الظلام ، ظلام دائم منذ سبع سنوات .

فكرت أن معاناة الإنسان لا يمكن أن يعيشها غيره ، بل حتى لا يدركها سواه .



أبـى

كـان لابد لأبى أن يموت فى غـيـبـتـى . كـان هذا يقـينه طوال الأربعين سنة الأخيرة من حياته ، وكذلك من حوله من البشر ؛ لأنه رفض أن يذهب إلى أبيه لحظة احتضاره ، فمات دون أن يرضى عنه ، ولقد حاولت منذ أدركت هذا الهاجس أن أخلف النبوءة ، فرفضت أسفاراً كثيـرة فى الخارج ، وداومت على الحضـور إلى البلدة بانتظام مطلق ، كل أسبوع أو كل أسبوعين، حسب الظروف ، وحينما أصبح ممكنا أن تتعامل قريتنا مع التليفون ، أدخلت واحداً إلى منزلنا ، ومع كل ذلك فقد وقعت النبوءة بإرادتى وعلمى ويقيني، فحين تركته لأذهب إلى عمل (ربما كـان هامـاً ، ولكنى على كل حال لم أتمه بسبب الوفـاة) فى هذا الوقت ، كان قد توقف عن تناول الطعام أو الشراب ، وكان واضحاً أن الموت قادم يقينا ، وإن لم يكن معلوماً متى بالضبط ، لذلك سافرت ، وحين أبلغت أنه فى حالة متأخرة سارعت بالحضور، فوجدته قد مات . وكـان – كـمـا أكـدوا – يسأل إذا كنت قـد حـضـرت حـتى لفظ أنفـاسـه الأخـيرة بهـدوء وبطء . (ولست أدرى – منذ ذلك الحين – إن كـان قد مات راضياً عنى أم لا؟) .



مسبحة أبى

أهوى المسابح منذ كنت صغيراً . انقطعت لفترة عن استعمالها بسبب انشغال يدى بسلسلة المفاتيح ،لكنى الآن أنتهز كل فرصة للتخلص منها ، والإمساك بمسبحة ما ... أحرص على اصطحاب واحدة ما فى رحلاتى الخارجية ، حيث لا أكون فى حاجة إلى حمل مفاتيح أصلا . أحياناً أشترى مسبحة ، إذا أعجبتنى ، وأحب أن يهدينى أصدقائى مسابح ... المشكلة أن خيوط المسابح تنقطع بسرعة مع كثرة الاستعمال .. لكنى مطمئن دائماً لأن لدى واحدة ، لم أكن أحبها كثيرا ؛ لأنها ليست أجملهن ، كانت أمى قد اكتشفتها بين مخلفات أبى بعد وفاته ، هى من خشب لا أعرف نوعه .. لكن ميزتها أن خيطها قوى ولا يبدو أنه سوف ينقطع مثل الأخريات .



احتفال العيد العاشر

لم أكن قد انتبهت إلى أن أمى مغتاظة حتى انقلب الموقد . لم تكن هى التى قلبته ، وإنما أنا ، ساعتها أدركت أن توتراً ما ، أو قلقاً يملكني. لم أكن قد استعدت يقظتى تماما بعد نوم ظهيرة ثقيل ، بدأته بمضاجعة لا ترقى إلى درجة الاحتفالية باليوم مع زوجتى ، بعدها غصت فى نوم كنت أتمنى ألا يدوم بعد الخامسة ؛ كى أبدأ فى طقوس الاحتفال التى أرادتها هى حين قررت أن نحتفل بعيد زواجنا العاشر بتورتة وشيشة أهدتها إلىّ بهذه المناسبة . كنت سعيدا بالشيشة ، قدّرت ما وراءها من رغبة واضحة ، فى إعلان هذا العيد على ملأ من يقضون معنا الأمسيات حين نكون بالبلدة ، بنات أختى وأولادها وأولاد عمى ، فهى ترغب فى الاعتراف بجزء مخبأ من الهوية ! أن أجلس بين هؤلاء وأسامرهم وألتقى معهم فى عاداتهم اليومية .

استيقظت فى السادسة والنصف ، معتل المزاج ؛ سعادة قلقة ، وبدأت فوراً فى استجلاب الشيشة وإعدادها للعمل ، جاء ابن عمى ليواصل العمل ، كى يضبط مستوى الماء ويحكم تركيب الأجزاء المفككة للشيشة ، وأخيرا استوت ووضع فوقها والنار ، وبدأنا نتبادل الأنفاس .

فى هذه اللحظة قررت زوجتى أن تبدأ الاحتفال فى حين اعترضت أمى همساً . ولم أنطق ، فأحضرت التورتة ، وضعت فيها ابنة أختى عشر شمعات صفاً وأضاءتها ، ثم أطفأتها زوجتى داعية إياى

للمشاركة فى الإطفاء ففعلت ، أطفأنا الشمعات فى ضوء الكهرباء الساطع ،وبدأ ابن عمى فى تقطيع التورتة والتوزيع على الحاضرين ، وكانت أمى تعترض على كبر القطع التى يوزعها ، وما أن انتهى من التوزيع حتى احتفظت بالباقى وهربت به إلى الداخل معلنة أنها ستوزعه رحمة على روح أبى .



أمى

رغم أن قريتنا كانت من القرى القليلة التى عرفت التعليم الابتدائى مبكراً ، فإن أبى وأمى لم يكونا يعرفان القراءة ، والكتابة . وفى حين أن أبى يجيد الحساب وقراءة أرقام السبية ، أى الميزان ، فإن أمى لم تكن تعرف أى منهما ؛ مما كان سببا دائماً لهجومه وتهكمه عليها .

حين فقد أبى بصره ،وكان لديهما بقايا تجارة ، اكتشفنا فى أمى قدرات كانت مختفية وظهرت فجأة ، فقد نجحنا فى تعليمها كيف تقرأ السبية دون أن تعرف الأرقام المكتوبة ، وذلك بأن تعد الخطوط المتتابعة المنحوتة حتى تصل إلى الموقع الذى وقفت عنده السنجة ، أى ثقالة الميزان .

وحين أصبح لدينا تليفون ، كانت حريصة على أن تتعلم كيف تستخدمه – ما لم تستطع أختى التى تعلمت فى المدرسة لعدة سنوات تعلمه – تعلمت كيف تطلبنى ، وكيف تطلب أختى .

لكى تطلبنى كان الأمر سهلا ، أن تدير الرقم الأول (واحد) والرقم الأخير (صفر) كى تتصل بالسنترال ، وموظفه فى الغالب كان يحفظ رقمى بالقاهرة . لكن فى بعض الأحيان كانت تقوم الخناقات بينها وبين الموظف، إذا لم يكن من الذين يعرفون رقمى . كانت تتهمهم دائما بالتكاسل ؛ لأنه ليس منطقيا – بالنسبة لها – ألا يعرف أحدهم رقم ابنها .

أما أختى التى تقيم بالقرية فقد كان الاتصال بها أصعب ؛ لأن رقمها مكون من أربعة أرقام، ومع ذلك فقد اكتشفنا نظاما يسهل عليها المهمة، أن تدير الرقم الثانى من البداية (٢) ثم الأول(١) وبعدها تدير الرقم قبل الأخير (٨) وما بعده (٩) .

هكذا كان سهلا أن تتصل بمن تريدهم فقط ، ومن هى فى حاجة إليهم .

بعد وفاة أبى ، لاحظت أنها قد أخذت تعبر عن رغبتها فى امتلاك الأشياء الجديدة من أدوات المطبخ ، وكنت أعجب من ذلك ؛ فلم يكن هذا الأمر معروفا عنها من قبل. والأهم من ذلك أنها من أجل هذا الجديد كانت تضيع أشياء مهمة ، فقد كنت أتصور – مثلا – أن طقس الخبيز فى الفرن التقليدى (العرصة) متعة بالنسبة لها لا تستطيع (التنازل عنها) وخاصة إذا كانت النسوة يجتمعن معها ويأخذن فى الثرثرة ، وأحياناً صنع الخبز الساخن بالسمن والسكر لأطفالهن مع مشاركتهن فى تذوقه .

لكنى فوجئت بأنها تكرر على مسامعى أن فلانة أو فلانة قد اشترت فرنا يعمل بالغاز ، وكنت أتجاهل الأمر ، حتى جاء يوم وأصرت فيه على أن تحصل على واحد فرضخت للأمر.

ولست أدرى كيف تستطيع مواجهة المشاكل وهى فى هذا السن وقد أصبح تركيزها ضعيفاً .

ففى كثير من الأحيان أشم رائحة الغاز المتسرب من عين البوتاجاز وأتساءل ماذا تفعل في حالة عدم وجودى ، ربما تقوم جاراتها بالواجب.

المشكلة الأخيرة المؤرقة لها الآن . هى أن نظام التليفون سوف يتغير، ويصبح تليفوناً يتصل مباشرة بكل مكان ، وهي قلقة لأنها لن تستطيع التعامل معه كما كانت تفعل .

فهل ستفشل حقاً ؟



أمى : قصة حب

قالت : سهام نجحت . قالت لك ؟

قلت لها : أيوة .

قالت : بنت عفريتة . أصرت أن تأخذ منى هدية لنجاحها بدل ما تجيب لى الحلاوة . فقلت لها : ما عييش ، فتشت سيالتى ولقت اتنين جنيه . خدت واحد وسابت واحد .

فى المساء جاءت سهام ، كانت تناوش جدتها فى موضوعات متعددة حتى وصلت إلى موضوع الهدية . وفهمنا أن الجنيه كان ثمن بيع بيضتين لجارنا السعيد ، قالت لها : عملت إيه فى البيض الممشش . السعيد رجعه ؟

أبدت أمى تجاهلا وكأنها لم تسمع . انتبهت إلى خطورة الأمر ، وإلى خطورة موقفها فضحكت بصوت عالٍ ، وضحك الآخرون حين فهموا ، وفهمت هى أنهم عرفوا الموضوع ، وأدركوا حيلتها بادعاء عدم السمع عندما يكون الكلام محرجاً لها ، فأخذت تدافع عن نفسها :

فيها إيه يعنى ، ما عملتش جريمة ببيع البيض علشان أدبر نفسى – ازداد ضحكنا .. كانت تدعى أنها تشترى لنا البيض لنأخذه معنا إلى القاهرة . كانت دائماً ترفض حين أحاول إعطاءها المزيد من المال .

نبهها ضحكنا إلى الجانب الآخر من الموضوع : السعيد الذى كان

أبى يغار منه ويحرم عليها محادثته . قالت : أنا قلت لك بعد أبوك ما مات ، مالكيشى دعوة بيّه . سيبنى على حريتى . كفاية اللى عمله فىّ أبوك .

واصلنا الضحك ، وكنت مدركاً خجلها من أن أشياء كانت تخفيها عنى قد ظهرت بالصدفة . أخذ خجلها شكل جرح عصبى إزاء سهام ، اتهمتها بنفس التهمة : أنها تخفى ما يعطيه لها المهندس الذى تعمل معه فى التدريب .

كنت سعيداً بأن وراء شكواها الدائمة من المرض والعجز حياة فيها بعض السعادة . فكرت أنه ربما يكون جميلا لها أن تتزوج السعيد . ولكنى أدركت أننى سأُتّهم بالجنون : ثمانينية تتزوج سبعينى .

استمر خجلها طوال الليل ، وحتى اليوم التالى .

حاولت أن أظهر اللطف معها متعمداً ، كانت تستجيب بحذر ، كما لو كانت تتوقع أن أنقلب عليها فجأة ، وأتهمها بما كان أبى يتهمها به ، بعد عشر سنوات من وفاته .



حقنة

فى الحادية عشرة مساء جهزت الحقنة ، استخدمت المنشار لقص رقبة الأنبوبة . أفرغت السرنجة من الهواء ، ثم سحبت السائل بهدوء وحتى النهاية ، ثم ضغطته بداخلها حتى يطرد ما قد يكون تسرب من فقاعات الهواء .

أضأت المصباح ، كانت نصف نائمة فتيقظت . قلت أديك الحقنة! قالت : تانى ! استنى أما أتعدل .

قلت : لأ خليكى . رفعت الثوب ، وجدت تحته قميصاً ، أزحته ، ثم رفعت السروال وبدا فخذها ضامراً ، لكنه كان دافئاً .

غرست الإبرة بحذر وضغطت السائل حتى انتهى ، ثم سحبت الإبرة بهدوء ومسحت مكانها بالسروال . أعدته وأعدت القميص والثوب والبطانية .

قبل أن أطفئ النور سألتها إن كانت قد تألمت . قالت الجسم مات ما عادشى بيحس بحاجة . لكن صوتها كان سعيداً .



طقوس العزاء

العزاء فى قريتنا طقس شديد الأهمية ، تفوق أهميته طقس العرس ، والمشاركة فيه أوجب من المشاركة فى الأفراح . العزاء واجب على كل من تجاوز سن الطفولة من الشباب أو ربما المراهقة . وهذا لا يعنى أنه ليس للأطفال دور فى هذا الطقس ، إنهم يقومون بدور ينشغل الكبار عنه أو يستنكفون القيام به . وهو دور سقاية المعزين . يحملون القلة باليد اليمنى وبمهارة يتم تمرينهم عليها ، بحيث تميل القلة المستند جسمها على يد حاملها ، بفوهتها ناحية الشاربين ، ويمرون على الصفوف واحدا واحدا ، مع توزيع الصفوف بينهم بنظام لا يختل .

العزاء يتم فى قريتنا فى الدوار إلا إذا أعلن أهل المتوفى أنهم اكتفوا بتشييع الجنازة ، وفى هذه الحالة يذهب الأقربون إلى بيت المتوفى وحدهم . أما فى حالة الدوار ، وهى عدة دواوير فى القرية ، لكل عائلة أو مجموعة عائلات واحد ، فإن الناس بعد الجنازة يتوافدون ويدخلون الدوار ليسلموا على أهل الميت الذين يقفون فى صدارة الدوار ، ثم يجلسون على المصاطب الأسمنتية أو الدكك الخشبية المصفوفة بتواز وتقاطع فى ساحة الدوار . وإذا كان الميت ثرياً ، فإن الكراسى الخشبية أو المُغطاة بالقطيفة تحل محل الدكك الخشبية .

ليست الأماكن فى الدوار متساوية ولكنها مراتب ودرجات ، هناك أولا الصدارة التى يقف فيها متلقى العزاء ، وهناك المنصة المرتفعة التى يجلس عليها قارئ القرآن . والمكان الأهم هو المكان المجاور

للصدارة تماما ، وهذا يحتفظ به عادة لأعيان القرية أو للضيوف الغرباء. وكلما بعدنا عن هذا المكان تضاءلت قيمة الموقع .

ومعظم أهل قريتى يعرفون مواقعهم جيدا فى الدوار بحيث إن الفرد يدخل ويسلم على أهل الميت ويتوجه تلقائيًا إلى موقعه الذى يرى أنه يليق به ، ولكن يبدو أن هذه المعرفة قد اختلت فى السنوات الأخيرة بحيث اقتضى الأمر وجود شخص أصبح يقوم بمهمة فى غاية الخطورة وهى توجيه الناس إلى المواقع التى ينبغى عليهم أن يحتلوها . يقف هذا الشخص أمام الباب فى مواجهة الصدارة . وتبدأ مهمته بتنبيه متلقى العزاء إلى قدوم شخص أو أشخاص ، وتحديد مدى أهميتهم بنطق أسمائهم بدرجات متفاوتة الارتفاع من صوته :

اتفضل يا أحمد ، أو اتفضل يا حاج محمد أو اتفضل يا دكتور، أو اتفضل يا على بيه . وفى هذه الأثناء يكون ذهنه قد عمل فوراً على تحديد مكان كل قادم جديد ، حسب خريطة الدوار فى ذهنه وأهمية القادم .

الأولوية دائماً للضيوف ، الوجهاء ، العمدة ومشايخ البلد ثم الأثرياء أو ذوى المناصب ، فيما مضى كان للمتعلمين وخاصة المدرسين موقع هام فى هذه الأولوية ، الآن أصبح لأثرياء النفط هذا الدور ، وتراجع دور المتعلمين إلا إذا جمعوا مع تعليمهم الثروة .

يجلس المعزون صامتين يستمعون إلى القرآن ، ويمر عليهم كل حين من يشكر سعيهم أو من يقدم لهم فنجان القهوة (وفى العادة

يرفضون إلا إذا كان الميت عجوزاً جداً) ، أو يقدم لهم السجائر (وعادة لا يتورعون عن تناولها وتدخينها أثناء التلاوة) أو أطفال القلل وهم أكثر نشاطاً وتوزيعاً لسلعتهم التى لا يستغنى عنها أحد وخاصة فى الصيف .

تتكون ليلة العزاء عادة من ثلاثة أرباع ، أي ثلاث فترات من قراءة القرآن ، يتناوبها قارئان أو ثلاثة. إذا كانا اثنين يختم من بدأ الأول بالثالث ، وهذا طبعا هو القارئ الأهم والأغلى ثمناً .

بعد كل ربع فترة قصيرة تتيح لمن يريد الخروج أن يصطف فى صف طويل يمر أمام أهل الميت ليسلم عليهم ويقول لهم البقية فى حياتكم ، ويردون عليه البقاء لله ، شكر الله سعيك .

يعلن القارئ نهاية الليلة بعد الربع الثالث بقوله الفاتحة ، قاصدا قراءة الفاتحة على روح الميت .

بعدها ينصرف الجميع إلا الأقارب . يقوم شخص بدفع حساب المشايخ والكهربائى وعمال القهوة ، ويبدأ الكهربائى فى فك أسلاك الكهرباء واللمبات ، ويتلكأ الباقون قليلا ، لكنهم – بعد قليل – يأخذون فى تقييم الليلة : ليلة حلوة ، المقرئون كانوا ممتازين . الدوار كان مليان على آخره . الناس مش فاضية ، موسم والناس تعبانة . الشيخ فلان دا طماع ما يصحش نجيبه تانى . إلا فلان ما جاش ليه . ليلة تليق بالمرحوم، كان راجل طيب ما يفوتوش واجب الله يرحمه، الفاتحة له .



تلاوة

كان الدوار ممتلئاً بالمعزين ، ومع ذلك واصل الشيخ عبده تلاوة الجزء الأول على غير العادة التى كانت تقتضى أن يختم حتى يفرغ الدوار قليلا ، ويجد المقرئ الآخر بعض الجمهور . وحينما انتهى فرغ الدوار تماماً .

لست أدرى إن كان الشيخ لطفى قد أحس ببصيرته بذلك ، أم لا .. لأنه لم يستغرق وقتا طويلا قبل أن يختم . توقعت أن يصدّق معلنا انتهاء العزاء كما فعل ليلة عزاء أمى ، لكنه لم يفعل ، وعاد الشيخ عبده ليقرأ الربع الأخير .

توقعت أن يكون شديد القصر نظراً لعدم وجود معزين تقريبا ... لكن أفراداً كانوا يدخلون على فترات متباعدة ... وبدا لى أنه محرج . وأخيراً بدا لى أنه قرر أن يختم وأخذ يمهد للنغم الهابط حينما دخل العمدة ، بما صحبه من ضجة خفيفة . فاضطر إلى تعديل النغمة والاستمرار. أخذ يتلو آية جديدة ، حتى وصل إلى « يا أيتها النفس المطمئنة» فتأكدت قبل أن يبدأ التمهيد النغمى أنه سيختم ، فى هذه اللحظة دخل شخص . رنا إليه بطرف عينه ودخل مباشرة فى نغمة الختام ....وصدّق . وكان شخصاً عادياً .



افتقاد

كنت أفتقد امرأة ، فوجدت نفسى بين خمس نساء ، إحداهن على الأقل تشتهيني، بالإضافة إلى أمى التى تعبدنى .

استيقظت من نوم لم يتم ، نوم كاذب ، وأعلمتنى أمى أن بنات حمدية قد جئن يسألننى لو كان ممكناً أن أصطحب جدتهم إلى المقابر بالسيارة .

ولما كنت قد استيقظت دون أن أجد ما أفعله ، فقد مررت على حمدية أسألها ماذا كانت تريد .

أعددت السيارة . أقنعت أمى بالمجىء إلى المقابر فهى تغيير على كل حال ،فذهبت وجاءت بجارتها التى تنتظر دائما الفرصة لزيارة المقابر ، وجاءت حمدية وأمها وحماتها ، ازدحمت السيارة إلى درجة أننا لم نستطع اصطحاب مها وسارة اللتين كانتا تبكيان لأنهما لن تستطيعا الذهاب .

فى الطريق تهكمت على السمينات من النساء اللائى يجعلن أيمن السيارة يميل عن أيسرها ، فضحكن فرحات . كن فى نزهة ، وكنت أشغل ذاتى عن مأساتى . وكنت مستمتعاً أننى فى المقابر .



مقبرة العائلة

آلت مقبرة العائلة إلى السقوط فهرع الشباب بقيادة ابن عمى الأصغر ليجمعوا نقوداً لإعادة بنائها . قالوا إن نصيب كل فرد فى العائلة، وليس كل أسرة كما كان الآباء والأجداد يفعلون ، عشرون جنيها، تعجبت من المنطق ، فى البداية ، ولكنى سرعان ما عقلته . طبيعى أن تحسب الأنصبة على الأفراد، لأنهم هم الذين سوف يموتون ويحتلون موقعاً فى المقبرة وليس الأسر .

ومع ذلك فقد دفعت نصيب ثلاثة أفراد ، واكتشفت فيما بعد أننى أصررت على منطق أنصبة الأسرة ، لأننى لست إلا فرداً ، وأنا فرد وحيد يمثل أسرة كان ينبغى أن يكون فيها آخرون : زوجة وأبناء؛ الزوجة لن تدفن فى هذه المقابر، والأبناء لم يأتوا أصلاً ، بررت فعلى بالقول: ربما لا يستطيع بعض الأفراد أن يؤدوا أنصبتهم .

لم أكن معهم وهم يعيدون البناء ، لكنهم كانوا – أثناء زياراتى – يحكون لى ما فعلوا .. كيف جمعوا العظام بحكمة وحذر ، وكيف حفروا عميقاً فى الأرض ، وكيف داروا هذه العظام بعد أن وضعوها فى جوال محكم الإغلاق . وبعد ذلك كيف أقاموا الجدران، وكيف فشل البناء فى إحكام القبو ، وكيف لجأوا إلى بناء آخر أكثر خبرة فى بناء أقبية المقابر بالذات ، لما لها من طرق خاصة لا يعرفها البناءون المحدثون .

اكتمل البناء دون أن يخبرونى ، ونسيت أن أسأل ، ولذلك فوجئت،

أثناء مشاركتى فى تشييع جنازة أحد الموتى ، به وقد أصبح جميلاً مهيبًا، وقفت أقرأ الفاتحة ، وأبحث عن قطعة الرخام التى تحمل اسم أبى، ولم أجدها فى مكانها ، كانت قبل ذلك فى الصدارة . ووجدت مكانها رخامة عمى الأصغر وتليها رخامة عمى الأوسط ، أما رخامة أبى فقد أصبحت فى الركن الأيمن أسفل الجدار .

❖❖❖

في المقبرة

كان الخميس الأول من رمضان هو الخميس الكبير لابن عمى الذى لم أستطع حضور جنازته . كنت أعرف أننى سأذهب إلى المقابر على كل حال . لأنه الخميس الأول من رمضان بعد وفاة أمى ، لكن زيارتها وحدها ، وحدى ، شيء آخر .

فرغم أننى تذكرتها وتخيلتها فى رقدتها خلف الفتحة المغلقة ، فقد منعنى وجود الآخرين من الاسترسال فى مشاعرى معها ، وأعطانى فرصة لتأمل ما حولى . منذ آخر زيارة وضعت قطعتا رخام جديدتان وستأتى الثالثة – دون شك ، حاملة اسم ابن عمى الميت قريبا ولاحظت أن واجهات المقابر الثلاث التى تملكها العائلة وتملك موتاها قد باتت أقرب إلى الامتلاء بقطع الرخام.

وتساءلت أين ستوضع أسماء الموتى القادمين ، بعد خمس أو عشر سنوات ، قلت لا شك أن بعضا من القطع الموجودة الآن ستزال وتوضع مكانها قطع للموتى الجدد وتساءلت من الذى سيحدد ما يزال وما يبقى؟ قلت لاشك ستكون العزوة ..

عزوة الميت الذى يترك من يدافع عن رخامته .

لفت نظرى أن قطع الرخام جميعها متساوية أو تكاد فيما عدا قطعة واحدة يكاد حجمها يصل إلى أربعة أضعاف الأخريات .. تلك هى رخامة أصغر أعمامى ، لماذا فعل أولاده ذلك ؟

هل كـان أغنى أخـوته أم أكـثـرهم عـدداً فى الأولاد ؟ وهل كـان يستطيع أحـد منعهم ... أليس هذا جوراً على حقوق الموتى الآخرين؟ يأخذ مساحة قطع رخام أخرى ، ويبرز ميتاً على ميت .

يبرز عزوة الأحياء على عزوة أحياء آخرين . وتساءلت أ نضاً إن كـان الآخـرون المحـيطيـون بى فى تلك اللحظة قد دار بـخلدهم مـا دار بخلدى، حين تصـورت أن ذلك لاشك حـادث ، شـعـرت بـالضـيق والخزى، لأن أبناء عمى قد أتوا هذا الفعل .

كانت معظم اللوحات مثبتة على واجهة المقبرة الأولى ... فـهى مقبرة الرجال .. أما التى تليها فهى مقبرة النساء .. وكان عدد اللوحات عليها أقل .. ولم يكن بينها تفاوت فى الحجم ، وإن كانت تبدو أصغر من أحجام لوحات الرجال .. وأقل جودة من حيث نوع الرخام .. أما المقبرة الثالثة فقد كانت خالية تقريبا من اللوحات ، فهى حديثة البناء ولم يقبل عليها أهل الموتى كثيرا فقد كانت من قبل مقسمة إلى مقبرتين إحداهما للأطفال .. تأملت اللوحات الأربع لمدفونيها .. كانوا ينتمون إلى فرع واحد من العائلة ماتوا تباعا وبسرعة غير مفهومة .. لم يكن أفقر فرع ولكنه الأقل عزوة .



آخر يوم في رمضان

في الطريق إلى المقابر ، كنت قد بدأت أسكن وأصفو . خالد يلح في إمساك يدي . يفتقد أباه دون شك ، ويشعر بحناني إزاءه ، يمكن حتى أن يعتبرني بديلا لأبيه ، الذي لا أظن أنه يذكره فقد مات بعد مولده مباشرة .

أمام المقبرة ، جلس بجواري ، وأنا أوزع القطع النقدية على الأطفال الصغار – وبعض الكبار – سأل :

هما مامعهومش فلوس ؟

قلت أيوه .

بعد قليل جاءت سلمى حفيدة أختي مع جدتها وأمها ، و جرت إليّ واحتضنتني وجلست في حجري . واصلت توزيع النقود . سألت :

هما بيخدوا فلوس ليه ؟

فقلت علشان ما معاهمش .

قالت يعني غلبانين .

قلت نعم .

لاحظت أن خالد قد جلس بجواري منكمشاً حزيناً ، فقد حيويته ونشاطه ، عرضت عليه بعض النقود فرفض .

بعد قليل استهوت لعبة توزيع النقود سلمى ،فقررت أن تشاركنى

فيها ، فأخذت ما فى يدى من قطع ، وتولت إعطاءها للأطفال ، كانت

سعيدة ، وظل خالد يحتفظ [illegible]

فى طريق العودة كانا يتبادلان الإمساك بيدى ، ولكن خالد ظل

حزينا [illegible]

فى المشاوير التالية [illegible] المرة الأولى [illegible] أعطيته فى

العودة [illegible]

قلت له زى ما أنت عايز ، قال [illegible]

وفى المرة الثانية جاء ومعه محمد ابن عمه المتوفى أيضا ، جلسا

يشاهدان معنا التلفزيون ثم قال : محمد قال تعالى نأخذ العيدية من

عمك . قلت ماشى

أعطيت كلا منهما نصفى جنيه جديدين ،فانشغلا بحصر ما مع

كل منهما من مصروف ،كان مع محمد جنيهان أحدهما قديم ، ومع

خالد ثلاثة أحدهم أيضا قديم . بعد دقائق قال خالد : فك لى الجنيه

القديم بفلوس جديدة .

قلت : الجنية بنصف ، ضحك محمد الأكبر سنا ، ورفض خالد .

أخيرا رضخت ،وأبدلت لهما الجنيهين القديمين بأربعة أنصاف

جديدة .

❖❖❖

أحمــد

منذ مات أبوهما ، تعود أحمد وخالد على أن يجلسا إلى جوارى أو على حجرى ، أثناء صلاة الجمعة . ومع الوقت انقطع خالد عن الصلاة وواظب أحـمـد . لكنه لم يعد يأتى إليّ . اليـوم ، حين دخلت المسـجـد وجـدته فى المقـدمـة ، وقد أسند ظهره إلى الحـائط وشـبك يديه على ركـبـتـيـه المرفـوعـتين أمـامـه . وكـانت قـدمـاه عـاريتـان ممدودتان ، فأغرتانى أن أضغط عليهما بخفة أثناء مرورى .

جلست فى مكانى وقد أيقنت أنه قد أدركنى ، توقعت أن يأتى ولم يحدث حتى انتهت الصلاة .

وعند خروجى وجدته ينتظرنى بالباب ، شبك يده الصغيرة بيدى وسار بجوارى صامتاً حتى وصلنا إلى باب بيتنا .

سألنى : أنت هتنام ، قلت أيوه . قال بعد لحظة صمت : خسارة . وصمت .

أدركت مقصده ، وكان يحب أحد شيئين كل يوم جمعة ، إما أن يحصل على نصف جنيه ويذهب ليشترى حاجة حلوة ، أو يصعد معى ليرسم بعد أن علمته ، وكنت سعيدا بالأمرين خاصة الثانى ، لذلك فقد قررت التراجع عن ردى ، وسألته ليه ؟

قال : كان نفسى أرسم .

أخذته من يده وصعدنا . أحـضرت له الأوراق والأقـلام . تركنى

أعمل على مكتبى ، وجلس يرسم على الكنبة فى صمت وانهماك .

بعد وقت سألته بترسم إيه . قال ورد .. فى كباية . قلت له : كده الورد هيموت ، خلى جدوره فى الميه ، وراسه فوق الوش . قال هى علمتنا كده . قلت هى مين ؟ قال الأبلة .

تركته يواصل الرسم وعدت إلى عملى . بعد قليل أعاد إليّ الأقلام ووضع الأوراق فى مكانها ووقف إلى جوارى يتحسس كتابى الذى أقرأ ويحاول أن يقرأ فساعدته . ثم قال : أنا ماشى فأخرجت نصف جنيه وأعطيته له . فقال مش عاوز . قلت له : خد هات حاجة حلوة .

أخذه ومضى بهدوء . وظللت وقتا طويلا قبل أن أستطيع مواصلة عملى .

فى المساء أدركت أنه قد احتال عليّ ليحصل على الشيئين معاً. لم يكن يريد أن يطلب نصف جنيه لأنه حصل على مصروف العيد بالأمس. وكان يعرف أننى أحبه أن يرسم . كنت سعيداً بحيلته، وبانخداعى له .

فى الجمعة التالية ، لم أجده فى المسجد ولا عند الباب ، فوجدت به يقف جوارى أمام باب المنزل . داعبت شعره ولم ينطق. اصطحبته ، واتجهنا إلى الدخول ، لكن شخصاً نادى عليّ من منزل ابن عمى القريب ، فذهبت إليه . ودخلت وجلست ، وحين بحثت عن أحمد لم أجده .

مضى بعض الوقت قبل أن ألاحظ أنه مختف خلف منزل مجاور ، وأنه يطل عليَّ بين وقت وآخر . لم أطل جلستى وقمت فوجدته ينتظرنى .

صعدنا إلى غرفتى ، وجلس صامتا ينتظرنى حتى أنهى مكالمتى التلفونية ، بعدها سألته : عاوز ترسم قال : أيوه .

أخذ الأقلام وأعطيته أوراقا جديدة ، قبل أن يبدأ قال : المرة الجاية حاضرب عاطف .

قلت : ليه ؟

قال : علشان قال إنك اديته نصف جنيه .

انتبهت : إنت ما جيتشى معايا علشان زعلان من عاطف . قال: لا ... لأنى شتمته لما شتمنى ، قلت : هو مين .

قال : سيده .

انتهى من الرسم . رسم هذه المرة هرما . أعاد الأقلام والأوراق ثم وقف إلى جوارى فحادثته قليلا ثم قلت : هتروح تجيب الحاجة الحلوة .

قال : هات .

أعطيته نصف جنيه. وخرج .

الجمعة الثالثة لم أره فى المسجد ،، وحين وقفنا للصلاة وجدته

بجوارى . فكرت فى الخطة الجديدة التى سوف يلجأ إليها للحصول على نصف جنيه .

فبالأمس جاء وحصل على ربع جنيه له ، وآخر لأخيه ، تبعًا لطلبه .

خمنت أنه ربما يلجأ لنفس طريقة الأمس ... كان قد سألنى إن كنت أحصل على راتب من الجامعة قلت نعم . قال : ما بتقبضشى فى مصر ؟ قلت إزاى ؟ قال : ما معاكش فلوس كتير . أنت معاك فلوس كتير ؟ فقمت وأعطيته ما طلب .

اليوم سار بجوارى تلقائيا بعد انتهاء الصلاة ونحن نصعد السلم . قال سأرسم . وحين صعدنا أحضرت الأوراق والأقلام وجلس يرسم . كنت أقرأ حين سألنى : إنت بتشترى البلح ولا بتجيبه من على النخلة . قلت : باشتريه .

فهمت بداية الخطة ، ولكنى لم أدرك ما الذى أدخل البلح فيها . فقلت ربما كان البلح الذى أحضرته لهم من الوزائف .

بعد أن انتهى ، حرص على أن يرينى ما رسم ، كان قد رسم هرمين ومستطيلا (سماه مربعًا) ومثلثين ونخلة تحمل عنقودين من البلح .

❖❖❖

كامل

هذا الصباح جاء مع أمه ليودعانى قالت سأستقر فى مصر . زهقت من البلد وناسها. أكد كامل على كلامها قائلا بمرح زهقنا قوى. كنت أتابع خلال الشهور الماضية معاناتها مع الوحدة ، وترددها بين الاستمرار فى البلدة ، دون رفيق ، سألتنى رأيى فلم أرد . لم أكن أملك لها حلا . ودعانى وخرجا دون أن ينسى الحصول على مصروفه .

أحسست بالفقد فورا . ثمة شيء عزيز ضاع منى ولست متأكدا أننى سوف أستطيع استعادته بعد ذلك . وتخيلت أننى يمكن بعد عشر سنوات أو أكثر ربما قابلت كامل أو أحد أخوته فى الشارع دون أن أستطيع التعرف عليهم .

ظل شعور الفقد يلازمنى حتى موعد الصلاة . وجدت الدافع للذهاب إلى المسجد قد تقلص وحين حسمت أمرى وذهبت ، كانت الصلاة قد أقيمت، وتراجعت الصفوف مزدحمة ، فنحن فى موسم فراغ من العمل ، ظللت أتقدم بحثًا عن مكان فى صف حتى وصلت إلى الصف الأخير وهناك وجدت مكاناً مع الأطفال .



هبة

وقفت فى منتصف الصالة لا تحرك ساكنا ، بدا واضحا أنها فوجئت بوجودى فأرخت رموشها ، ولكن مشيتها كانت مترددة فى أنحاء الصالة. كانت ترتدى فستاناً جميلا لا أدرى ما الذى شدنى فيه . ثمة صلة ما بينى وبينه . كان فستاناً أحمر غامقًا، تقليدياً ولكنه كان جميلا .

حاولت أن أشد انتباهها بطرق شتى ، لوحت بيدى، ومططت شفتى بالطريقة التى تحبها ، لكن ذلك كان دون جدوى . تركت موقعها وتحولت إلى جدتها وارتمت فى أحضانها .

كانت قد جاءت مع خالتها التى حكت أنها نادت علىّ عدة مرات عندما مرت أمام بيتى ، لكنى لم أجبها فذهبت إلى بيتهم غاضبة منى تبكى وتصيح : هو ماردش على هبة .

قفزت من مكانى ، وذهبت إليها وحملتها بين ذراعى واحتضنتها بقوة فلم تتأب وبعد وقت قليل كانت طبيعية تضحك وتلهو . ولكن كلما سألتها عن سبب غضبها منى ، كانت تصمت.

سألتها : مين جاب لك الفستان الحلو ده، أرخت جفونها وقالت : أنت ، بخفوت . قالت أمى فستان عمتها المرحومة هبة . تذكرت أننى كنت قد اشتريته لها من باريس منذ خمسة عشر عاماً ، لكنها لم تلبسه

قط . فقد كان صغيرا عليها ، كانت فى الثالثة ، حين اشتريته ، ولم أكن أدرى أنه لطفلة فى الثانية من عمرها .



طفولة

ذات عيد وجدت مع حفيدى كريم مسدسا صغيرا لطيفا، فأعجبنى. كان يشبه المسدس الحقيقى، كما أن صوت طلقاته كان يحدث فرقعة تشبه صوت الطلقات الحقيقية .

كان كريم فى ذلك الوقت يخاف العنف والأصوات الصاخبة ، طلبت منه أن يعطينى المسدس على أن أبادله بآخر كنت قد اشتريته ولم يعجبنى ، رفض كريم فساهمت أمه معى فى إقناعه بالتخلى عنه ، لى.

كان مع المسدس طاقم من الطلقات ، لم أستطع استعماله كله أثناء تسليتى أحياناً بالمسدس ، حينما لا يكون معى أحد أو يسمعنى من يمكن أن ينزعج من الصوت .

مع الوقت نسيت المسدس وطلقاته ، وفجأة وجدتها فى درج مكتبى، فأخرجت المسدس ، وكان محشوا ، وحاولت استخدامه فوجدته مكسوراً .

زارنى الحزن لأن لدى كمية من الطلقات ، ولما لم أكن أعرف أين يمكن شراء المسدس ، انتظرت العيد التالى .

فى العيد مررت على أصحاب المحلات والأكشاك بعينى دون أن أجرؤ على السؤال. أحياناً اقتربت أتفحص أنواع المسدسات المعروضة، ولم أجد شبيها لمسدسى المكسور .

بقيت الأيام التى سبقت العيد متحسراً لأننى لم أصل إلى نتيجة ، وفى صباح يوم العيد جازفت باقتحام المسدسات المعروضة وتفحصتها . بدا لى واحد منها وكأنه ، رغم عدم شبهه بمسدسى ، يصلح لنفس الطلقات ، ولأنى كنت قد يئست من الحصول على شبيه بمسدسى أو مثيله ، فقد طلبت من البائع أن يبيعنى هذا المسدس.

أعطانى المسدس، والذى كان شكله طفوليا ، وأعطانى دستة من الطلقات ، لاحظت أنها كانت قريبة جدا من الطلقات التى لدى .

سألنى، وكان قريبا لى ، لمن تشتريه قلت ، وأنا سعيد ، لكريم .

عدت إلى منزلى مسرعا ، وفضضت الغلاف عن المسدس، وتأكدت من مطابقة الطلقات القديمة بالجديدة ، حشوته بالجديدة ، وأطلقت أول طلقة .

كنت سعيدا ، وشعرت أننى حققت أمنية غالية : أننى أشارك أطفال العالم الاحتجاج العنيف، الذى يسمح لنا به الكبار ،ضدهم .

أطلقت عدة طلقات مع الصغار الذين زارونى ، والكبار أيضا ، ثم اكتشفت أنه من السخف أن يواصل من هو فى مثل سنى اللعب هكذا . فقررت فى خيالى أن أوظف الطلقات ، ضد من أساءوا إليّ . وبدأت أفكر فى هؤلاء ... من هم ؟

لم يظهر فى ذهنى سوى اثنين، امرأة أوهمتنى بالحب ثم هجرتنى

وأحببت آخر ، أطلقت عليها الطلقة الأولى ، انزعجت من صوتها ، لكن قدراً من الراحة غمرني ، وكنت في حاجة لبعض الوقت لأطلق الطلقة التالية . كنت أعرف إلى من توجه ، إلى شخص أراد تحطيمي ، كان يخشاني وعنده حق ، كانت طلقته أخف وطأة . ما زال حسابه قادماً ، أما هى فليس لديّ وسيلة للانتقام منها ، لن يستطيع أحد أن يجبر أحداً على حبه .

توالت الطلقات ، ضد تلميذ بذلت له كل ما أملك علمًا ومالاً ، وكتب رسالته إلى عدوى ، انتهازى ، وعلى فرنسيس الذى استولى على الفتاة الفرنسية التى أعجبت بها وكنت أتمنى قضاء الليلة معها ، ثم على الشخصين اللذين ضرباني أثناء محاولتى صف سيارتى فى شارع محمود بسيونى ، وإلى الشخص الذى كاد يضربنى لولا حماية مرافقى فى السيارة فى أرض اللواء .

وعادت إليّ صورة حبيبتى المفتقدة ، لم تعد حبيبتى ، فأطلقت عليها طلقة أخرى .

لم أستطع نسيان كل ما فعله الرئيس كلينتون والرؤساء الأمريكيون السابقون عليه ، ضدى أنا شخصيا ، وكذلك رؤساء وزارات الدولة الإسرائيلية وقيادات منظمة التحرير ، ورؤساء الدول العربية العملاء فأطلقت مجموعة متوالية من الطلقات ، لا أدرى عددها ، حتى انتهى ما لدى من طلقات ، فحاولت النوم .

بعد شهر فسد المسدس . وكنت – فى رحلة إلى الواحات – قد اشتريت له كمية من الطلقات ، لزوم الرحلة ولم أستنفدها ، ذهبت إلى من باع لى المسدس السابق ، ومن حسن الحظ وجدت نفس النوع فاشتريت واحداً جديداً .

سألنى البائع هل لديك طلقات ، قلت بخجل ما : نعم .



مظاهرة

بعد ظهر أمس فوجئت بأطفال العائلة وقد التفوا حولى. كانوا قد كفوا عن ذلك منذ فترة طويلة دون أن أدرى السبب . كان أحمد وحده الذى يزورنى بانتظام .

ظللنا نلعب ونتكلم .. حكت لى مها عن مظاهراتها وزميلاتها فى المدرسة الإعدادية ضد إسرائيل وشارون :

يا شارون يابن المرة

لم كلابك واطلع بره

لست أدرى إن كانوا هم الذين ألفوا هذا الهتاف أم سمعوه. على كل حال هتاف مضبوط : الهدف واضح والنقمة واضحة فى السباب الشعبى. والوزن أيضاً مضبوط يزاوج بين فاعلن وفعلن .. هناك خطأ طفيف فى القافية . سوف يتجاوزونه بلا شك حين يكبرون.

كانت لدى بعض أعلام فلسطين . أعطيتها لهم حين ذكروا أنهم يرسمونها بأقلام ويرسمون أعلام إسرائيل ويحرقونها.. أعطيتهم أيضا بعض النقود . لكنهم احتفظوا بها ولم يسارعوا لشراء الحاجة الحلوة ، لأن التليفزيون كان يذيع صور الاعتداءات الإسرائيلية المتوحشة فى جنين .

حين خرجوا ، جاء عاطف الذى لم يكن معهم يسأل عنهم متردداً

أدركت أنه علم أنهم حصلوا على المصروف ، لكنى لم أبادر بإعطائه نصيبه ، لأنه لم يدخل ، ثم لمت نفسى . بعد قليل وجدته يرفع علم فلسطين على دراجته ويجرى بها ووراءه شلة من الأطفال يرددون نفس الهتاف . خرجت أتفرج عليهم .. كان قد أخذ أحد الأعلام التى أعطيتها لهم وركبها على دراجته .. ناديته وسألته علمك ده ؟ .. قال لا ، علم مها . وقبل أن يواصل المظاهرة ، مددت له يدى بالمصروف .



علم

كنت فى حاجة إلى فعل شئ غير متابعة الأخبار . كان ترحيل المطلوبين الستة تحت حراسة إسرائيلية ومراقبة أمريكية مؤلمة .. ألماً أكبر من أن يحتمل . ألم غطى على الراحة التى نتجت عن مشاهدة عرفات وهو يخرج من حصاره . منذ الصباح لم أستطع أن أفعل شيئاً . اهتممت بأمى حزيناً وصامتاً .. وجلست أقرأ عن مخططات شارون حتى أنقذنى الأطفال .. جاء محمد وهبة ... أحضرت لهما علمين من أعلام فلسطين التى قد كنت جئت بها إلى قريتى .. سعدا بهما . قلت لهما : تيجوا نشترى حاجة حلوة قالوا يلاً.

خرجنا من باب المنزل ومعهما العلمان . قلت بصوت خافت فلسطين عربية .

قال محمد بصوت قوى : فلسطين عربية وتبعته هبه .

تابعت الهتاف بصوت أعلى وتابعا بعدى بصوت أكثر علوا حتى وصلنا الدكان . لم تكن لديها رغبة قوية فى الشراء ، فاشتريا لبانا ومصاصات .. وعدنا .. حاولت أن أكمل الهتاف .

رغم أنف الصهيونية

حاول محمد نطقها ولم تحاول هبة .. لم تكن سنواتهما الأربع كافيه لنطق الجملة الصعبة حاولت تهجيها لهم .. ولكن لم أنجح .

عند باب المنزل وجدت أحمد كنت سعيدا برؤيته .. وكانت عيناه تلمعان من الفرح حينما رأى العلمين فى أيدى هبة ومحمد . قال : من فين ؟ قلت : عندى . جبت لك كثير . قال : طيب أروح أصلى وآجى .

لم تدم صلاته طويلا. جاء بسرعة . أخبرته عن موضع الأعلام. ذهب وأتى بكمية ليست كبيرة .. يعرف حدود إمكانياته فى التوزيع . جلس يسألنى عما أفعل فى مصر من أجل فلسطين فحكيت له . كانت أمى جالسة عن قرب ، قلت له إنها أخبرتنى أنه يزورها .. ابتسم ولم يعلق . بعد قليل خرج وجاء خالد .. كان واضحاً أنه رأى الأعلام مع أحمد .. طلب أعلاماً . أرشده إلى مكانها ، وحين كان فى طريقه إليها عاد أحمد وراءه فتابعه . ولما رجعا كانت مع خالد كمية مماثلة لكمية أحمد أو أقل قليلا ... فأحمد فى السابعة ، وخالد فى السادسة من عمره، انتابنى مزيج من الفرح وخيبة الأمل . الفرح لأن الطفلين كانا مقدرين لإمكانياتهما بدقة ، وبخيبة الأمل لأن كمية الأعلام التى أحضرتها كانت كبيرة .. لكن هذا الشعور سرعان ما تحول إلى شجن عميق حينما توالت وفود أطفال الناحية يطلبون الأعلام (يسمونها صورة) .

ودخلت أمى المعممة فطالبت بنصيبها لتوزيعه على من تود .. لم أكن أعرف بالضبط ما الذى تمثله لها الأعلام . تتابع الأخبار وتحكى لى - كل التفاصيل بدقة - . أعطيتها عددا وحاولت تلبية رغبة كل

الأطفال ، حتى انتهى ما لدى من أعلام .. وبقى آخرون يطرقون الباب. فوعدتهم بأن أحضر المزيد .. غدا .



ألم

أعيش ألمى الخاص .

أعرف أن آخرين فى العالم كله يتألمون .. لم أر فى حياتى من قبل كل هذا العدد من البشر يتألمون لسبب واحد هو ما حدث فى جنين وكل فلسطين .. ومع ذلك فإننى أعيش الألم باعتباره ألمى الخاص .. خصائصه – فيما أعتقد – مختلفة عن ذات الألم الذى يعيشه الآخرون. أحاول أن أخرج نفسى منه .. أذهب إلى قريتى حيث أمى فى حاجة إلى والتليفزيون الأبيض والأسود القديم لا يستقبل سوى القناتين الأولى والثانية والراديو يستقبل لندن .

أتابع الأخبار فى مواعيدها الرئيسية ، كى ألم بالتطورات الكبيرة .. أصبحت أعرف التفاصيل ..

أمس الأول قادتنى يدى إلى قلم ودفتر وأخذت أشخبط خطوطا عشوائية على الصفحات .. أحياناً ضبطت نفسى أرسم إنساناً امرأة أو رجلاً لكن كنت سرعان ما أهرب منهما إلى الشخبطة من جديد .

أمس قادنى الأطفال إلى لعبة الأعلام .. وزعت عليهم أعلام فلسطين حتى انتهت وسعدت بهم وهم يسيرون بها فى الشارع أو يلصقونها على جدران بيوتهم أو يهدونها لأساتذتهم وأصدقائهم . اليوم جلس أمام منزلى بائع ربابات . وأنا أتناول شاى الصباح مع أمى أخذت أتأملها . قطعة من الخشب الملون بالبوية الحمراء ركبت عليها طبلة وبطولها امتد سلك مربوط فى طرفها بقوة . كان هذا هو الظاهر

أمام عينى . قلت لنفسى لا شك أنها غالية الثمن ولن يستطيع الأطفال شراءها .

جاء الأطفال يطلبون العلم ، ولم يكن قد بقى لدى منها شيء . جاءت أميرة وبيدها ربابة : جزءان . الجزء الذى رأيته فى سلة البائع وجزء آخر . قطعة من الجريد قوست بحبل من الألياف ربط طرفيها ، كان هذا الجزء الذى يخرج الصوت عند تحركه على السلك . سألتها عن ثمنها قالت : نصف جنيه ، فطلبت منها أن تشترى لى واحدة .

حين أتت بها حاولت أن أعزف ففشلت رغم أننى – تذكرت – كنت قد عزفت مراراً عليها من زمان بعيد . مر الصباح والظهيرة ، ثم خلوت إلى نفسى لا أدرى ماذا أفعل .. تذكرت الربابة .. أحضرتها وحاولت العزف ، كنت قد نسيت كيفية استعمالها فأخذت أجرب . قلت: فلأحاول عزف بلادى بلادى .

كنت أريده لحناً هادئاً حزيناً .. لكنه جاء متوتراً قلقاً حاداً .

قلت : فلأترك نفسى على سجيتها وأخذت أجرب أصوات نشاز أو جملا لحنية ناقصة أو كاملة . فى النهاية استقامت لى نغمات واضحة لا أعرف هويتها .. بعد أن توقفت عن العزف ، تذكرت نغمات الموسيقى الصوفية الهندية ، التى كانت قد أهدتها لى صديقتى التى أشتاق إليها دون أن أستطيع التواصل معها .



القبلة الأخيرة

حين عادت من رحلة العلاج بالخارج ، كنت قد قررت ألا أقبلها ، فالأنباء التي وصلتني جعلتني أتوقع أنها ستصل في حالة حرجة جدا ، وجاءتني تحذيرات ألا يقترب منها أحد أو يقبلها ، فهي هشة يمكن أن تتأثر بأي فيروس أو نوبة برد .

حين لقيتها في المطار مددت يدي لأسلم عليها من بعيد لكنها جذبتني لأقبلها على وجنتيها . في الزيارة التالية في بيتها لم أقبلها أيضا، لاحظت أنها متكدرة .

كانت آلامها مبرحة ، وكنا نعلم جميعا أن أيامها معدودة ، وكنا نتابع حالتها يوما بيوم بل ساعة بساعة .

في اليوم الأول كانت رغم آلامها سعيدة بأنها معنا ، وظلت تتحدث طويلا في كل شيء . وفي اليوم التالي عاد الألم يسيطر عليها ، وامتنعت عن استقبال الزوار وحتى القريبين منها ، كانوا يبقون معها مدداً قصيرة ، وحين يظهر عليها التعب يغادرون .

فكرت قبل المرة الثالثة ، أنها ربما كانت تحتاج إلى قبلتي ، إلى حميمية ما تربطها بالحياة ... ربما كانت تنتظر هذه القبلة منذ أزمان أبعد .

حين ذهبت لم أجرؤ على تقبيلها ، ولكن في نهاية الزيارة ، قبلتها

فى جبينها ، وأثناء خروجى لاحظت تورد خديها .

فى الزيارة الرابعة ، وكانت مفاجئة ، لم أقبلها فى البداية ، كانت متوترة ومرهقة وزائغة العينين . مكثت قليلا من الوقت وتحدثنا قليلا ، وقبل أن أغادر ضممت وجهها بين كفيّ وطبعت قبلة على جبينها وخرجت دون أمل أن يتورد خداها .



شوق أخير

النساء أكثر قدرة على إدراك الشوق أو فن الآن ، إنها - عبر ربع قرن - كانت تسلح الشوق فى عينى . وإنها - فى الحقيقة - لم تكن رافضة له .. كانت تحبه . كانت تحب قبلاتى على وجنتيها وفى أيامها الأخيرة كانت تنتظرها وكنت مترددا هل أقبلها أم لا . كنت أتصور أن هذا يمكن أن يزعجها ، يذكرها بالشوق القديم ، الذى لم يعد ممكنا تحقيقه .

فى اللقاء الأخير ، أكثرت من تقبيل يدها وكتفها القريب منى . هل لاحظت ذلك ؟ ربما .. كانت فى غاية الإجهاد ، تعذبت كثيراً . قالت لى امش الآن . لم أعد قادرة على الكلام .

حين تابعت جسدها إلى الغرفة المبردة وقبل أن يدخلوه فى «الدرج» ، كنت أتمنى أن أقبل أى جزء من جسدها ، لكنى لم أكن أستطيع ، فساهمت فى تسوية وضع ساقيها بموازاة بقية الجسد لتدخل الدرج بسلاسة ، تأكدت أن الدرج قد استوعبها . كانت قد أصبحت قصيرة ضامرة أنزل العامل باب الدرج ليقفله ، كان متعمداً . أمسكت الباب بيدى اليسرى ، مقللا من سرعته وتابعته وهو ينزل حتى أغلق - محكما - بصمت وهدوء .



نهايات

خلال الأسابيع الماضية ، كانت صديقتى تعيش أيامها الأخيرة فى الحياة ، ولأنى كنت مشغولا بها عمليا ونفسيا ، فقد تركت أشياء كثيرة معلقة .

تركت على مكتبى ولاعات أوشك غازها على الانتهاء ، لم أغامر بحملها معى إلى الخارج خشية أن ينتهى فى لحظة حرجة ، وكذلك بقايا علب سجائر ، وأقلاما أوشك حبرها على النفاد ، لنفس الخشية ، تركت نصوصا لم تكتمل ، لأن حالتى لم تكن تسمح بإكمالها كما يروق لى .

أول أمس ماتت صديقتى . وذهبت إلى المستشفى بمجرد علمى بالخبر ، من حسن الحظ أنها لم تكن قد تركت غرفتها بعد . رافقتها إلى الغرفة المبردة وشاركت فى وضع جثمانها – الذى أصبح ضئيلا – فى درج الثلاجة .

بالأمس ذهبت إلى بدروم المستشفى وانتظرت حتى تم الغسل وحملتها فى النعش ، إلى سيارة التكريم ، وركبت بجوار السائق حتى وصلنا إلى المقبرة ، ووقفت عند فوهتها حتى سدوا عليها الباب .

وساهمت فى إحكام إغلاقه ، ثم انخرطت فى البكاء .

فى المساء شاركت فى تلقى العزاء بعض الوقت ولم أستطع

الاستمرار ، فجلست أرقب المعزين .

اليوم استيقظت مرهقا مغلقا ، ولكنى ظللت أحوم حول مكتبى مدخنا بقايا علب السجائر ،واحدة وراء الأخرى، ومعها أخذت أنهى الولاعات الموشكة على الانتهاء ، ووجدتنى أتناول أحد الأقلام التى أوشك حبرها على النفاد، وأعدل فى نص كنت قد كتبته ليلة وفاتها ، وحين انتهيت لم يكن القلم قد انتهى ، تذكرت أن ثمة نصا آخر عن مقبرة قريتنا كان حيا داخلى منذ أسبوعين ، ينتظر الكتابة ، فأحضرت ورقا وكتبته ، ولم ينته القلم بعد فتذكرت إضافة كنت قد قررت إلحاقها بنص كنت قد كتبته عن أمى ،فأحضرت النص ، وكتبت الإضافة التى طالت لتصل إلى ما لم أكن قد فكرت فيه ، وفاة جار لنا. انتهى النص ، ولم ينته القلم بعد ، ولذلك فقد وجدت نفسى مدفوعا لكتابة هذا النص . كى ينتهى القلم ، ولكنه خذلنى ولم ينته بعد .



قصة حب -١-

استندت إلى جدار ظليل أرقب الميكانيكى وهو يعمل بهمة ونشاط ونظام فى إصلاح السيارة . كان شاباً وسيماً . كانت حرارة الصيف حادة ومع ذلك سقطت قطرات من المطر لدقائق . لايحدث هذا إلا فى أوربا والإسكندرية . على اليمين انفتح فجأة شباك فى الدور الأرضى، وأطل وجه جميل وشهى لامرأة ثلاثينية . بشرة قمحية فاتحة ، عينان صافيتان ، شعر أسود ، جبهة عريضة ، وكذلك كل الوجه ، مع استطالة تجعله أليفاً ، الشفتان تتحركان انفتاحاً وانفراجاً مع حركة الأسنان التى تلوك اللبانة التى فضحت حشمة الملابس الكاملة ، نظرت إلينا ثم إلى الشارع يميناً ويساراً بهدوء وثبات ثم استقرت واقفة تنظر دون قلق لمدة دقائق ، ثم أغلقت الشباك واختفت ، وإن كان ممكنا أن ألمح حركاتها خلف الزجاج ذهابا وإياباً .

بعد دقائق أخرى عادت إلى الظهور ، هذه المرة كان الميكانيكى يعمل فى وسط الشارع ، وجهت نظرتها إليه مباشرة ، ولم ينتبه، كان مشغولا بحديث وهو يعمل ، لكن حواسه التقطت النظرة ، وتواصلت عيناه معها لحظة ، قبل أن يواصل حديثه وعمله بهدوء وثقة ونظام .



قصة حب -٢-

جلست فى شرفة الفندق المطل على البحر والأزياء والعربات أنتظرها ، كانت غرفتها – أسفل غرفتى مضاءة – ولكن لا أحد يظهر فى الشرفة .

فى الصباح لمحتها وأمها السمينة وأباها الأصلع ، لم أر سوى جانب وجهها ، وخيِّل إليّ أنها فى غاية الجمال .

فى الظهيرة فوجئت بها فى المطعم ، كان ظهرها لى، ولكنى أخذت أدقق فى المرآة الطويلة المواجهة لى ولها فوجدت وجها فى غاية الجمال حقًا . وبدا لى أنها لمحت تدقيقى فى المرآة لأنها أخذت تبدو مضطربة تروح وتجيئ وتغير من مواقع جلستها على المائدة . وتأكدت أنها جميلة ، فى نهاية النهار وبداية المساء جلست فى شرفتى مشتاقا لأن تنظر إليّ . وصلتها أشعة عينى ، رفعت رأسها إلى أعلى ونظرت فوجدتنى ، فاضطربت حركاتها وأخذت تروح وتجئ وتعطى لجسمها حق الحركة الحرة ، حركة من يشعر أن شخصاً معجباً به يراقبه .

تكرر ذلك مرات عديدة حتى حل الظلام فدخلت غرفتها . فى نهاية المساء جلست فى شرفتى ، أرقب خروجها إلى شرفتها ،انتظرت طويلا قبل أن تخرج فجأة لتنظر إلى البحر فى لمحة سريعة وتعود إلى غرفتها ، دون أن ترفع عينيها إلى أعلى لترانى . كانت فتاة صغيرة وكنت كهلاً .



قصة حب -٣-

بمجرد دخولها المكان ، انتبهت حواسى . كان وجهها قريب الشبه جدا من وجهها . وكذلك تناسيق أعضاء جسدها ، وطريقة ارتدائها الملابس ، تى شيرت أبيض وبنطلون أسود (جينز ستريتش) . مع فارق أنها كانت تسير بشكل يبرز مفاتنها ، وخاصة نصفها الأسفل، الذى كانت تحركه على نحو مثير .

كانت معها عجوز تبدو أمها ، محجبة ، وطفلة صغيرة تبدو ابنتها . جلسوا إلى المائدة التى تلى مائدتى من الخلف على اليسار . فكان عليّ أن ألتفت ورائى لأراها .

لكنها لم تصعب عليّ المهمة ، إذ فجأة وجدتها قد نهضت بعنف وألقت بمبسم الشيشة والموبايل على المائدة وأخذت الطفلة ، واختفت لفترة طويلة ، شغلتنى فقمت أبحث عنها . كانت بمعنى ما تمثلها لى . وكنت فى شوق إليها منذ عدة أيام ، وفى عودتى لمحتها تجلس بين أمهات كثيرات يراقبن أطفالهن الذين يلعبون على المراجيح.

على مائدتى سمعت صوت رنين موبايل مستمر ، كان على مائدة الأم ، حاولت أن تجيب أو تسكت الصوت ، ولم تفلح ، تركته يكرر الصوت مرات متعددة ، وظلت شاخصة إلى الأمام إلى الأبد.

قبل مغادرتى بقليل توجهت إلى حيث يلعب الأطفال بالمراجيح. وجدتها جالسة على أريكة بجوار المراجيح ، ولكنها لا تراقب طفلتها ،

كان وجهها بائساً وحزيناً ومنكساً إلى الأرض، تكاد تبكى ، هى ذات الوجه الجميل والجسم الفاتن المثير . تأملتها لحظات من زوايا مختلفة ، ثم وقفت عند بوابة ستخرج منها - لابد - وحين رأيتها خارجة قلت لها، وكأنى أكلم نفسي : تليفونك يرن كثيرا ، وأمك لا تستطيع الإجابة. مضت ربما دون أن تنتبه أننى أكلمها .



قصة حب -٤-

لم تنتبه إلى أنها تحبك إلا حينما أحببت أخرى ، وكنت قد حاولت معها ، لكنها كانت قد تزوجت ، وهى المخلصة لم تكن تستطيع أن تقبل الخيانة . فى مرات لاحقة أبدت طواعية متحفظة ، وقالت إنها لا تريد أن تفقدك إذا حدث بينكما ما يكسر الصداقة .

مـــرات قليلة تلامس الجـســدان ، الأيدى، الأعين ، الخـدود ، الصدور، فى كل مرة كانت العيون تتألق ويزداد اللعاب ،و تبدو النار فى الأفق . حين اكتشفت أنك تحب أصـابها الاضطراب ، اقتربت منك إلى حـد الاحـتـضــان وتراجـعت إلى الخلف خطوات تكاد تكون هـجـرانا، ومـرضت وسـألت عنهـا ولم ترد ، ثم عـادت لتسعى وتسـأل عن الحب الذى ينبغى أن ينتهى ، تتابع أخباره وينم صوتها عن عذاب مقيم .

فى البداية – حينما استشرتها كصديقة – أعلنت أن هذا ليس حباً ، هو انجذاب ، ثم عادت تتساءل عما إذا كان مجرد انجذاب فقط .

وأنت الذى أدرك المأساة بعد فوات الأوان حاولت أن تؤكد دائماً أنه لم يكن حبًا ، وأنت تعرف أنه كان حـبا مسـتـحيلا ، وأنك ضائع بين مستحيلين .



قصة حب -٥-

ظللت شهوراً تطاردها عيناك ، تبحث عنها بمجرد دخولك إن تأخرت ، وتحرص على المجيئ قبلها ... ربما أسعدك الحظ فجلست بجانبها أو جلست بجانبك .

كان واضحا أنها ملكة .. رغم التواضع البادى .. ثمة اعتداد وقوة فى ملامح الوجه وحركة الجسم إذ تسير أو تجلس .. وكان فى كل ذلك عذوبة ورقة آسرتان .

رويدا رويدا ومع المجهود الضخم لتحقيق الاقتراب . اقتربت منها وحادثتها ،وحادثتك كزميل دراسة . ولكن سرعان ما كانت المحادثة تتوقف عند هذه الحدود .

وأنت الآن تجلس وحيدا على المقهى تنتظرها وتعرف أنها لن تجيئ .. مثل كل المرات السابقة ، تعد بالمجيء ثم لا تجيئ . تجلس إذن شاعراً بالغربة وفقدان اليقين ، ولا تعرف ماذا تفعل مع هؤلاء البشر . كيف تقترب منهم ، وكيف تعيش بينهم .

على عكس يقينك جاءت آن مارى وجلست بجوارك ، وكان عليك أن تحقق ما أردت طوال تلك الشهور المضنية ، كانت مطواعة ، راغبة فى أن تفعل ما تريد ، ولكنك لم تكن راغبا فى فعل شيء . لم تكن ربما قادرا على فعل شيء . وهكذا وجدت نفسك تقود الحديث إلى الانغلاق ، لكى تذهب آن مارى وتحقق توقعك أنها لن تأتى .



قصة حب -٦-

الواحدة صباحاً فى شرفة منزلك المطل على الترعة ، تحاول تأمل موقعك وما تستطيع فعله فى العالم الذى أصبح يتأبى عليك .

هدوء تام وفجأة طرقعات شبشب حريمى متلهف متسرع ، وصوت فتاة : كحة مبحوحة محذرة متوجسة مستمتعة . من أين هى عائدة ؟



قصة حب -٧-

الواحدة صباحا .جرس تليفون ، ترفع السماعة لا أحد يرد ، صوت أنثى تبتلع ريقها ويغلق الخط، تضع السماعة ، وتحاول أن تنام .



قصة حب

المراودة

قال : هناك مستويان للكلام فى هذه المسألة . رغباتنا الداخلية ، وظروفنا الاجتماعية . وأنت لا تتكلمين عما أشعر به من رغبتك الداخلية ، وتتكلمين عن ظروف اجتماعية أراها خاصة بى أنا وأعتقد أن المنطلق الحقيقى ينبغى أن يكون من داخلك ، لا من هذه النقطة . بمعنى أنه إذا كان لديك حقا رغبة فى إقامة علاقة معى ، فإننا نستطيع - بوعينا - أن نجد حلا لبقية المشكلات.

ابتلعت ريقها الذى كان يتكرر ابتلاعه على نحو ملحوظ وقالت : المشكلة أعقد من ذلك فأنا فى مرحلة قررت فيها ألا أدخل فى علاقة إلا إذا كانت صحيحة .

قال : ما معنى صحيحة؟ هل لابد لعلاقة صحيحة - من وجهة نظرك - أن تنتهى بالزواج؟ بدا عليها قليل من الاضطراب ، لإحساسها بما فى كلامه من اتهام ضمنى لها ، ولكنها قالت بسرعة : لا طبعًا ، المقصود بالعلاقة الصحيحة العلاقة التى تبنى لا تهدم على كافة المستويات ، وعلاقتى بك محكومة بالهدم ، ومعروف مسبقا أنها ستنتهى إلى نهاية سيئة لكلينا .

كان راغبا فيها وكان يعتقد أنها ترغب فيه ،ربما هذه اللحظة بالذات. وأن المناقشة معها أو الحوار لا جدوى منه ، وأن البديل

الصحيح هو أن يقتحمها ، ويرضى عاطفتها بدلا من الاقتناع بحججها المنطقية . ومع ذلك لم يجد أمامه بدا من التسليم بوجهة نظرها ، فقال: معك حق. وأنا لدى مشكلة ، وهذه المحاولة شر لا داعى له. ثم وجه دفة الحديث إلى موضوعات أخرى جزئية صغيرة ، حرص ألا يعود إلى ذلك الموضوع . بعد قليل من الوقت لاحظ أنها كانت تستخدم بعض الألفاظ – فى سياقات مختلفة – ترتبط بالمنطقة المحرمة، كذلك لاحظ أن لعابها قد زادت سرعة ابتلاعه . ولكنه تجاهل الأمر وظل فى سياق حديثه المتنقل . حتى قررت أن تذهب .



دير روايامون

فى الصباح تأكد أنه هو (فرنسيس) الذى كان يعزف .. ذلك اللحن الذى نمت على أصدائه ليلة الأمس ، بعد أن فشلت فى اجتذابها إليك . كان الإرهاق بادياً بوضوح .

حاولت أن تعلق ، ولكنك قلت : أنت متعب قليلا.

قالت بابتسامتها الرقيقة التى كنت قد عشقتها : هل هذا يرى ؟

تأكد ظنك ، لم يكن المكياج الكثيف ناجحًا فى تغطية آثار خربشات وبقع دموية حول الشفتين، وبعض النمش الذى لم تكن قد رأيته قبل ذلك .

ظللت طوال اليوم تتحاشى النظر إليها حتى حانت اللحظة الأخيرة ، اقتربت منها – وكان فرنسيس قد غادر – للوداع ، تبادلتما أرقام التليفون ، وسألتك ، إن كنت غاضباً منها .

قلت : قليلا ، على كل حال أرجو أن نلتقى لكى أحكى لك أشياء كثيرة .



قصة حب

فى الصباح كنت قد استطعت أخيرا أن تملك نفسك وتبدأ عملا ما ، حينما جاءك صوتها – عبر الهاتف – يدعوك للقاء ، وكنت راغباً وغير راغب .

لم تكن تريد أن تفقد الخيط الذى أمسكت به . وفى نفس الوقت تعرف أن الهاتف قد أفقدها إياه ، سواء استجبت أم لم تستجب . فى النهاية لم تستجب وضاع الخيط ، حاولت أن تفعل شيئاً ما ولم تنجح .

فى المساء اتصلت بها وحددت موعدا بعد منتصف الليل بغيرها، وضربت لها موعدا آخر فى نهاية الأسبوع .



ماريا

مدريد ٩٧

ثدياها بين حناياك يحملان كل معانى الحب والرغبة ، الصداقة والامتنان . وكانا يحملان ازدواج البداية والنهاية .

كل لقاء وداع قبل رحيل لا يعرف ما إذا كان نهائيا . هَل تبقى ، تبقيان ، ترحلان أم ترحل وحدك .

مدريد ٩٩

مفاجأة هى برؤياك ، وأنت سعيد أنك وجدتها . مع آخرين كثر ، خرجتما لاحتساء القهوة كنتما سعيدين باللقاء .

وحدكما - وسط الزحام - عبرت عن رغبتك فى لقائها. قالت لدى عملى . ثم إن شخصاً يقيم معى الآن . على كلٍّ سأتصل بك..



عمانية

جاء صوتها فى الصباح رائقًا صافيًا جميلا ، ابتدرتك بكركرة ضحكتها التى لا تنساها . قالت إنها كانت فى تونس مرت بالقاهرة لمدة ليلة . تملك فقط إمكانية الاتصال بالتليفون .

أعادك صوتها إلى سنوات أربع مضت .. إلى رحلة عمان . كنت قد ذهبت مشاركا فى منتدى .. وفى الحقيقة كنت ذاهبا إليها . فمنذ رأيتها فى الزيارة الأولى إلى عمان ، ثم فى القاهرة ، وأنت تتحرق شوقا إليها . إلى جسمها اللدن وعينيها الداعيتان وبساطة روحها ، وعمق مشاعرها .

ومنذ وجدت الآخر يداعب ثدييها وهما مستندان إلى جدار سطوح بيته فى مساء ذلك اليوم ، وأنت لا تنساها .

فى تلك الزيارة كانت مشغولة ، ولم ترها سوى مرة واحدة ، ليلة واحدة جميلة ، قبل تلك الليلة حاوت أن تستعيض عنها بأخريات وفشلت لأنك كنت تبحث عنها بالذات . الليلة السابقة قضيتم – مجموعة من الرجال والنساء – الليل فى غرفتك ، كانت منافسة حامية بين الرجال على فتاة لم تدخل فيها . انتهت الليلة بنصيبك فتاة خليجية معقدة . حاولت أن تنام معها – دون رغبة حقيقية منك – فرفضت .

فى المساء جاءت بسيارتها . وفى الطريق إلى بيتها اشتريتما لوازم السهرة .

وفى فراندة مطلة على حديقة صغيرة محيطة بالمنزل ، أعدت النار للشاى والشيشة وجاءت المزات ، وتبادلتما الشراب .

ولم تكن تعرف أو حتى تتوقع ما يمكن أن تنتهى إليه الليلة . فهى زوجة صديقك وصديقة زوجتك ، ولكنهما ليسا معنا الآن ، والآفاق مفتوحة . الحديث ودى وحميم ، يتناول كل شىء السياسة والفن والطب والأدب والشعر والحياة المملة الكئيبة فى عمان والقاتلة فى القاهرة . مع الحديث والشراب تقاربت الأرواح ،والأجساد وتهاوت فى قبلات وأحضان محمومة . وحين جاء موعد النوم فى سريرهما هربت إلى مكان آخر ،ونامت ، ولم تكن قادراً على مواصلة المعركة بعد أن هدك الشراب .

فى الصباح وجدتها ممددة فى الكنبة فى الصالة ، تمددت بجوارها والتصقت بها . قالت والنوم ما زال يغالبها ، ألم تنته بعد .. وأعطتك فخذها ، ووجدت نفسك – دون ولوج – تعيش أجمل لحظة ذروة فى حياتك .



بيروتية

كعادتها ، بمجرد أن وصلت ، جلست وراء الطاولة ،وانكبت على العمل ، لم أكن أعرف بالضبط ماذا تفعل ، ماذا تقرأ ، وماذا تكتب بيدها اليسرى، فيما بعد عرفت أنها تلخص الأبحاث التى تلقى على المنصة . جلست – فى مواجهتها – أنظر إليها بين الحين والحين ، محاولاً أن ألفت نظرها ،دون جدوى .

تأملت وجهها طويلا ، لم تكن شديدة الجمال ، ولكن فتنة ذراعيها ونحرها التى بدت متحررة من الثوب الأسود الكئيب ، جعلتنى غير قادر على أن أتحول عنها ، لكن جديتها الدائمة جعلتنى أتساءل هل عرت هذا النحر والساعدين طوال الوقت عبر مختلف الأثواب التى ارتدتها طوال أيام الندوة ، كى أجلس لتأملها من بعيد ، دون أن يسمح لى حتى ولا بلمسة واحدة!

فى الطريق إلى الجنوب كانت معنا ، فى الكرسى الذى أمامى مباشرة ، وبجوارى كانت فتاة أخرى بدت صديقة لها ، عرفت منها أنها تعمل بإذاعة الشعب . ومن هذا المدخل كان يمكننى بدء الطريق إلى ملمسها ، لكنى قد كنت انشغلت بملمس جارتى الذى كان قد تحقق بالفعل .



مأساة

منذ البداية أخذت عيناك تتحولان بحثا عنها . كانت قد انتقلت - بمجرد دخولك - إلى مكان تستطيع أن تراها فيه على نحو أفضل . ويبدو أنها ذعرت من شكلك ، لأن ملامحها تغيرت تماما . زمت الشفتان ، وارتفع الخدان ليلامسا العينين تقريبا وتقلصت الذقن ، كان واضحا أنها أدركت ما تعيش ، وأنها تخشى أنك لن تستطيع إتمام عملك كما ينبغي حتى النهاية .

ظلت طوال الوقت ترقب متألمة دون أن تتغير ملامحها ، كانت تدرك المأساة التى تعيشها .. المأساة التى تهددها . مأساة حب آخر .



معنى الحياة

بالأمس ذهبت إلى الكوافير ، لم أصفف شعرى فقط ، بل نظفت جسمى أيضاً .

اليوم قبل أن آتيك .. ارتديت جوبة تنحسر عن فخذى تماما حين أجلس . قلت : حينما نجلس متجاورين سيرى كل شيء.

حين كنت أهم بالجلوس إلى جوارها نظرت فى ساعتى ، كان موعد الرحيل قد حان .

كان آخر لقاء حميم يضمنا منذ أربعة عشر عاماً . خلالها تزوجت وأنجبت طفلين ، ومرت بمشاكل كثيرة مع زوجها وفى عملها.

أثناء ذلك كنت أنزعج حينما أراها ، كانت قد اقتربت من شكل الحيوان المريض المتضخم الجثة ، بليدا متجهماً .

المرة الوحيدة التى جلسنا فيها على انفراد أنبتها بشدة ؛ لأنها لم تعد مهتمة بنفسها .

حين جلست إليها وقد جئت متأخراً قالت إنها لم تشعر بالرغبة فى الحياة منذ زمن طويل إلا بالأمس . حين شعرت أن شخصا ما يحبها ، اهتمت بنفسها وبجسمها . وعادت تلك التى عرفتها قبل ذلك ... عادت إلى جمالها ورشاقتها وعذوبتها ، كانت تضع على عينيها نظارة سوداء.

قلت : اخلعى النظارة .

قالت : لا أستطيع أن أواجهك مباشرة بعد كل هذه السنين .

كانت تقصد أنها لا تريد أن تفضح رغباتها بصراحة ..

لكن فتحة البلوزة كانت كافية ، فقد كانت تكشف منابت الثديين اللينين الريانين .. وكانا مغريين .

قلت لها : كيف أستطيع مقاومة كل هذا الإغراء ؟

قالت : أحب أن نلتقى ، ولكنى أحب زوجتك أيضا .

حكت عن زوجها وأطفالها ثم سألتنى عن علاقاتى النسائية .

قلت لها : أشعر أن حنان امرأة واحدة لا يكفينى ، وتعاطفى مع امرأة واحدة لا يكفينى أيضاً .

قالت : هل لصدرى مكان فى بحثك عن الحنان :

أمسكت يدها الممدودة المخدرة الندية . قلت لها : كان الحب معك أجمل حب فى حياتى .. قالت : المرة القادمة ستكون أجمل .

لم أقبلها حين أتيت . وحين غادرت لامست شفتاى خديها كانا شبقين حميمين وحين طالتا الزاوية اليسرى من فمها تسرب إليهما نداها.



قصة حب

فى البداية قلت لها إنك تثق فيها ، ولا تخشى عليها شيئًا . كانت تعرف علاقاتك الأخرى وتخشاها وترغب فى مثلها ، فهى ليست أقل منهن ، وعلى نحو ما ، كنت تدرك رغبتها المتناقضة ولم تكن هى تغريك بالمغامرة ، ولم تكن أنت -- آنذاك – فى حاجة إلى مغامرة جديدة . ظلت معاناتها مكبوتة فى الغالب، معلنة ، فى أحيان قليلة ، حتى تفجرت فى لحظة واتتها حين أدركت أنك فى أزمة حب ، عبرت عن تناقضها بغموض ، وكنت فى حاجة إلى حضنها – حتى ولو كان جافا – وإلى تضامنها ، وكانت هى راغبة وخائفة – لكن قبضة اليد على اليد، كانت قادرة على أن تقول كل شىء وأن تغنى عن حضن مستحيل .

فيما بعد معك فى جلسة حميمة ، تسمع قصصك ولا تستطيع أن تعلن حزنها ، لأنك مررت بكل هذه التجارب .

هذه المرة ، وجدت نفسها قادرة على الحديث فى المغامرة الأخيرة الشائكة . شكوت لها قلت إنك لم تكن السبب ،قالت : كيف وأنت تغرى فتيات كثيرات ، كانت تقصد نفسها ، قصدت إياه بسخاء ورغبة ، وتوهج وجهها ، ثم توقفت لا أريد أن أفعل شيئًا يغضب زوجى . تكررت اللقاءات . كانت تدرك أن صداقة حميمة تربطك بزميلة لها ، كانت تغار منها دون أن تدرى أنت ، وكان الصراع بينهما قائما على

مستويات متعددة . أدركت أخيراً أنك جذره .

في اللقاء الأخير ، وكانت قد شعرت بأنها قد نجحت في تحجيم صداقتها ، بدت أكثر طواعية . تمنعت في البداية عن حضنك لها وهي جالسة ، وهربت إلى المطبخ ، وهناك انتظرت حضنك واقفة ، في البداية الصدر ، ثم البطن ثم الساقين ، فجأة قلقت فاستدارت وأعطتك ظهرها مستسلمة وهادئة ، وشعرت أن جفافها ليس إلا جفافا ظاهريا . على الغذاء قلت لها : جسمك جميل ولا يجوز أن تهمليه هكذا . سألت عن الكيفية ، فقلت ينبغي أن تختارى الملابس المناسبة لجسمك بأجزائه التي شعرت اليوم بجمالها لأول مرة .

في اليوم التالي ، رأيتها ، كانت أجمل ، ترتدى بلوزة مفتوحة وبنطلونا مجسماً وكان وجهها مضيئاً . لكن حين واجهتني سارعت بوضع يديها فوق فتحة البنطلون التي تخفي السرة وما تحتها .



مغامرة

كانت مغامرة غير مأمونة العواقب . اتصلت بها وسألتها كيف تجرؤ على وضع النار بجوار الحطب ؟ قالت لسنا أطفالاً .

ضحكت وصمت ، لكن حين ذهبنا لم أكن مستريحاً تماماً ، وإن لم أكن شديد القلق . لم أكن أعرف زوجها وأولادها جيدا ، كنت أعرف أنه رجل أعمال غني ، وكنت أتصوره أكبر منها بكثير .

لكن حين رأيته ، بدا عليه أنه أكبر بسبب ذقن ، اكتشفت فيما بعد أنها لا تنبع من إيمان عميق، بدا في الجلسة الأولى- مرحاً ثرثاراً ، ومتفاخراً – إلى حد ما بثروته ، التي بدا لي أنها ليست بعيدة عن ثروات الأثرياء الجدد في مصر بعد الانفتاح .

كان أبوها ، هي أيضا ، قد كون ثروته التي تتباهى بها أحيانا بعد الانفتاح ، ولكن عن طريق السفر إلى دول الخليج .

كانت المفاجأة في الولد والبنت . كانا في غاية اللطف والرقة ، والأدب مع تلقائية كاملة في السلوك والحركة مع التهذيب . شعرت أني أحببتهما فوراً .

مر اليوم الأول بهدوء دون مشاكل . بعد الغذاء استرحنا وقتاً كافياً ، وخرجنا لنسير قليلا بجوار – البحر– ثم عدنا وذهب كل إلى غرفته بعد عشاء خفيف .

لم أنم جيداً . دارت الأفكار فى ذهنى هل ستمر الرحلة على خير . من ناحيتى لا أشك أنها أيضا تريد ذلك . ولكن ألا يجرحها ألا أحاول لمسها حتى ولو من بعيد ؟ أعتقد أن الدعوة ذاتها تتضمن هذه الدعوة للمس ، أو على الأقل الوجود بالقرب .

فى الصباح استيقظت زوجتى مبكرة ، ولحقت بها ، وجلسنا نحتسى الشاى ، والقهوة ، حتى استيقظت وجاءتنا بملابس النوم ، لم تكن متبرجة تماماً ، لكنها تفضح الكثير ، قبلت زوجتى وفوجئت بها فى فمى تقريبا وذارعى تلمس صدرها البارز الرجراج .

تأكد ظنى وأدركت أن على أن أفعل شيئًا ما . فأخذت أسعى للحظات أخلو بها .

لم تكن علاقتى بابنتها ذات السنوات الإحدى عشرة قد بدأت بعد . من بعيد لاحظت أن جمالها يبزغ بوضوح . وجه منمنم متناسق ينبئ عن شهوة ، وخاصة فى بريق العينين ، رغم النظارة ، التى تضعها . وجسم لدن لكنه يحقق نسب الرياضية الماهرة كما عرفت فيما بعد ، وأيضا المتدربة على التنس ورقص الباليه .

بدأت العلاقة الحقيقية ، حينما خرجنا معا بعد الإفطار إلى السوق . كانت الشمس حامية وبدت مترددة فى الذهاب بالدراجة ، فعرضت مصاحبتها بالسيارة فسعدت ووافق الجميع . فى الطريق إلى السوق ، ولم يكن طويلا ، بدت لطيفة بالفعل ، تجمع بين البراءة والنضوج ،

تعاملت بحكمة مع البائعين ، لكنها لم تمنع نفسها من التعليق الطفولى على تدخينى المستمر ، وفى طريق العودة دعتنى لزيارة البحر فرحبت، كنت أود أن أراه نهاراً . كان لونه جميلا ، لازوردية لم أرها إلا فى سواحل شمال مصر، تقود بصرك ، رغم أنفك ، إلى أعماق سحيقة فى نفسك ، غسيل وصفاء .

لم نبق طويلا وعدنا إلى البيت لنجد الجميع قد ذهبوا إلى حمام السباحة ، فأسرعت الصغيرة للحاق بهم وتعللت بتغيير ملابسى للبقاء مع الأم . حين لاحظت ذلك ارتبكت واكفهر وجهها ، لكنى حين لمسته لانت ملامحها ، لامست ركبتها العارية ودلكتها بحنو ، مذكرا إياها بلحظات سابقة ، استرخت قليلا ، فسعيت إلى يدها ، كانت حنونة لينة معروفة . وقلت وحشتينى ، أومأت برموشها ، لكنها أسرعت واقفة ، وقالت : الرز هيتحرق . أدركت أننى - إذا واصلت - فسوف أضعها فى مأزق لا مبرر له ، فخرجت إلى حمام السباحة ، هناك لم أجد سوى الفتاة تسبح ، كان الزوج قد ذهب إلى صلاة الجمعة ومعه ابنه . أشعلت سيجارة وجلست أنظر اليها ، وحينما انتهت خلعت ملابسى ونزلت . كان الماء لذيذا ، ولا يخيفنى عمقه ، وأخذت أحرك أعضائى بهدوء وراحة ، ثم انطلقت أسبح أطول مسافات ممكنة فى حمام صغير . لاحظت أن الفتاة كانت تقترب منى وتحاول قذفى بالماء قائلة إن أباها وأخاها يفعلان معها ذلك . فى البداية لم أستجب ، ولكنها استمرت تنظر

مؤنبة ومؤلبة حتى استجبت حينما اخترعت لعبة نتسابق فيها على علبة فارغة يفوز من يصل إليها أولا . وبما أنها كانت سباحة ماهرة ، كانت تفوز بالعلبة دائماً ، ولم يكن على إلا محاولة اختطافها من يدها ، فلا أراها فأضطر للإمساك بأجزاء مختلفة من جسمها ، وخاصة تلك التى كانت قد أعجبتنى إذ كنت ألاحظ سباحتها ، فخذاها وما فوقهما .

مع استمرار اللعب ، بدا أنها قد أخذت تهتاج ، ولم أكن قد انتبهت كليا إلى إمكان ذلك من قبل ، انسحبت الأم التى كانت قد جاءت لنا بالمشروبات ، وعادتا إلى الفيلا وبقيت مع الصغيرة التى امتزج هياجها بقلق غريب، تريد أن تواصل اللعبة ، ثم تحجم .. وبعد طول إحجام ، وأنا منتظر جاءت سابحة ومعها العلبة الفارغة ، وقد ملأتها ماء ، خطفتها ، منها وحاولت سكب مائها على شعرها ، فمدت يدها وأمسكت بيدى ووجهتها إلى ثدييها النابتين ، اللذين لم أكن قد انتبهت إلى وجودهما من قبل ، حين انتهى الماء ضغطت يدى بيدها ، حتى تضغط هى العلبة، فوق الثديين ، فشعرت بلدونتهما ورقتها لحظة قبل أن تفر هاربة ، فتركتها ، وعدت إلى الفيلا ، فوجدت الأم وحدها ، لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أقول لها : بنتك هتكون ألذ منك .

فابتسمت ، وصعدت إلى غرفتى .



نظرة واحدة

خرجت من القاعة إلى أردهة ، وفى الطريق إلى الباب مررت بالكافيتريا ، بالصدفة نظرت بالداخل فوجدتها تجلس مع آخرين على أقرب مائدة من الباب ، كان وجهها قد شاخ قليلاً هل هى فعلاً . ما الذى أتى بها إلى هنا .

عرفتها سنوات طويلة ، أحبتك دون أن تدرى ، أعلنت لها أنك تحبها كاذبا ، اكتشفت ذلك متأخراً ، ولم تكن أحلامها وهى المبدئية مطلقا إلا الانسحاب إلى الأبد . دون الاستجابة لأى محاولة للتفاهم .

تجاوزت المخرج الأخير نظرت ناحية الكافيتريا عبر الزجاج ، وجهت نظرتها إليك بسرعة من أجل التأكد فقط مما لاحظته .

ثم خفضت بصرها ، وعادت بوجهها إلى من كانت تجلس معهم .

❖❖❖

ذكرى

كنت فى الممر الضيق الذى يؤدى إلى غرفتى حينما تذكرت فجأة أننى أمام تلك الغرفة مباشرة ٢١٠ تذكـرت اللحظـة . فخلـف هذا الباب انتصب عضوى فجأة ليلمس سرتها وهى تحضننى حضنا تجاوز حد الأخوة . اندهشت لمعة عينيها وهى تواجهنى متسائلة وكأنها اكتشفت فجأة أن بداخلها نفس الرغبة . كان ذلك منذ سنوات . أين هى الآن ؟

هل هاجرت هروبا منك ؟ من حب لم يكن يستطيع إلا تدمير حياتها وحياتك . كانت مترددة لكن زوجها هو الذى أصر . هل أدرك الخطر الذى ينبعث منى على حياتهما .. ربما أشعر بالذنب وربما – أيضا – أحب هذا المكان والمجيئ إليه .



منية

سعت إليك عبر أسابيع بحجة حاجتها لفهم بعض المصطلحات والمفاهيم ، دعتك إلى بيتها . كان رمضان ، ولم تجد مشروبا مع العشاء فلم تذهب . فى المرة الثانية قدتها لأن تدعوك فذهبت بعد شراء ما يلزم .

كانت قريبة منك وأنت تشرح لها ما طلبت ، وتتحدثان فى أشياء عديدة .

عبرت لها عن رغبتك في تقبيلها ، قالت لا أريد ، هذه أشياء لا تطلب ، تأتى تلقائياً .

فيما بقى من السهرة سمحت لك بالأحضان ومع الوقت كانت تلين رويدا رويدا وكادت تستسلم ، لكنك كنت قد قررت الرحيل .



سلام أخير

حينما دخلت فى الصباح قالت : لن أجيئ بعد نهاية هذا الشهر. أزعجه كلامها .

لم تكن قد أمضت فى العمل معه أكثر من ثلاثة أشهر .. وكان عملها مفيدا بالنسبة له ، ووجودها مريحاً .

لم يفهم قرارها . سأل : هل وجدت عملا آخر ؟

قالت : لا

- هل ستتزوجين ؟

- لا . سأدخل الامتحان .

كان قد غازلها بفجاجة حينما جاءت فى المرة الأولى .. رفضت .. لكنه فسر رفضها بفجاجة طريقته . لم يحاول هو مرة أخرى ، لكنها هى التى كان تحاول التدلل .. ولم تكن الظروف تسمح له بالاستجابة لها .

فى اليوم الأخير من الشهر اعتذرت عن المجيئ بحجة أنها مريضة، كان مشغولا إلى حد أنه لم يستطع السؤال عنها ، وربما قرر ذلك . وهذا ما عاتبته عليه حين هاتفت لتعلن أنها عوفيت وتريد أن تأتى يوما أخيراً .

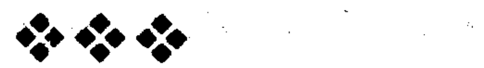
جاءت فى اليوم التالى ، كانت مرحة تحدثت كثيرا ، مع بعض

التلميحات .

عاد ليسألها إن كانت ما زالت مصرة ..

قالت : نعم ، نقدها شهريتها وذهب لينام .

حين استيقظ كانت ما تزال تعمل ، فذهب إلى الصالة وجلس يعمل هو الآخر . حتى حان موعد خروجه .. فوجدها مستعدة للخروج دون أن يكون العمل الذى بين يديها قد اكتمل . على السلم قالت : أشعر أننى نسيت شيئاً عندكم .. صمت قليلا قبل أن يقول .. ربما نسيت نفسك .. قالت لم لا ؟ إنها أربعة أشهر .. تكفى لأن يرتبط الإنسان بالمكان . حاول أن يمسك يدها فأعطته إياها ثم سحبتها بسرعة .. كانت باردة وجافة .. وظلت كذلك حتى مدتها لتسلم عليه السلام الأخير .



قصة حب -٨-

قـالت لا أريد زهرة جـديدة . كلمـا التـقـينا تـهـدينـي زهرة .. لا أريدهـا .

ماذا تريد إذن ؟

ربما تريد شخصاً آخر لست قادراً على أن تعرفه لكى تكونه .

وربما تعرفه وتعرف أنك لن تكون .

وربما لا تريدها لأنها تعرف أنك لن تكونه .



قلم

لاتعرفين – الآن – طبعا أن قلمك الذى أهديتنى كـان قـادراً طوال الوقت على أن يقودنى إلى حلم جميل ، به أكتب أشيائى الحميمة ، وله اشتريت أحباراً من كل مكان زرته فى العالم ، ويمتلك انسيابه القدرة على أن يقول أن ريشة القدماء لم تنته ، وأن الجمال فى العالم ما يزال .

يقول قلمك الذى أهديتنى .

إنك أحببتنى .

وإننى أحببتك .



أقلام

قلم يكتب بخشونة ، ولكنه قليل الاستهلاك للحبر. وقلم يكتب بليونة ولكنه كثير الاستهلاك . يسعدنى الأول لبخله لكنى لا أستخدمه كثيرا . أحب الثانى وأستخدمه ، حتى وإن كان خطه رديئاً.



شوارع

فى كل مكان فى العالم يصمم المهندسون المدن والبيوت وينفذونها . ثم يأتى البشر ليعيشوا فيها ويتحركوا ، فيحركوا كل ثابت وضعه المهندسون ، يديرون الزوايا الحادة ، ويصنعون النتوءات بمفاهيمهم ، أكشاكهم وحوانتيهم وبلكوناتهم .

أجلس الآن فى شرفة أطل منها على شوارع عديدة بدا أنها كانت فى التخطيط مستقيمة أصبحت الآن مليئة بالدوائر والمنحنيات . يتعلم المهندسون من خبرة البشر وحركتهم ، فيخترعون نظريات جديدة للتخطيط والتنفيذ . ولكن البشر الأحياء سرعان ما يخترقونها ، مرة أخرى ودائماً .



عرس

كان عرس فى فندق ، وكعادة هذه الأفراح - فى هذه الأيام - أن يبدأ الاحتفال بزفاف العروسين من غرفة بالفندق حتى قاعة الاحتفال ، وسط هتافات المدعوين وتصفيقاتهم .

وصلنا متأخرين بسبب الحر والزحام - مع انتهاء الزفة ، أخذنا مواقعنا بعيدا قدر الإمكان عن مكبرات الصوت ، ومع ذلك لم ننج من صوتها العالى، بدأوا بأسماء الله الحسنى ، والعروسين على باب القاعة ، وفجأة انقلبت الموسيقى إلى موسيقى أوربية صاخبة نتحرك العروسان على منصتها ، واستمر العزف القربى يقود الراقصات والراقصين نحو الساعتين . كنا خلالها لا نطيق أنفسنا من علو الصوت وعدم انسجامه ، لولا هذه الفتاة .

كن جمعًا من الفتيات الجميلات ومتوسطات الجمال والقبيحات اللائى نجحن فى تغطية قبحهن بما يلبسن وبالزينة . وكن يتبادلن فى أشكال الرقص المختلفة ، وكان بينهن بارعات .. لكنها كانت أكثرهن براعة .. ربما لم تكن ترقص أصلا . ولكنها هى التى شدت انتباهى .

كانت تلبس فستانا فضيا ينتهى عند قمة ثدييها ، معلق على الكتفين بشريطين رقيقين وحين لحظتها منذ المرة الأولى أدركت أن هذا الزى ليس زينة وإنما ضرورة لإبراز أهم ما فى جسمها ، أنها قادرة على تحريك كتفيها مع الموسيقى ، وليس فقط وسطها أو ساقاها كما كانت

الأخريات يفعلن .

بدت لى حركة الكتف دالة على أنها ترقص من الداخل حقا ، وفيما بعد أكدت لى حركات بقية أجزاء الجسم ، وكذلك الوجه الهادئ الصبوح ، أن الرقص ينبثق من داخلها ، وأن تصميم الفستان لم يكن ينفصل أبدا عن هذا الانبثاق الداخلى العميق .

بمجرد انتهاء العشاء ، سارعنا إلى التهنئة والذهاب .. على الباب سمعت الموسيقى تصدح من جديد .. توقعت أن فاتنتى ستواصل رقصها .. وتمنيت لو كانت وحدها .. وبقيت .



القبلة الأولى

كانت القُبلة الأولى أمام مسجد المعز ، فوجئت وبد أنها اندهشت من أن يحدث هذا فى هذا المكان .. المقدس .

لم تكن المرة الأولى التى نذهب فيها إلى شارع المعز .. كانت الثالثة . فى المرة الأولى تجولنا فى الشارع حتى قرب النهاية ، لكنى كنت مرهقاً ولم استطع الاستمرار فى حين كان شوقها جارفاً للاحتضان ولو فى وسط الشارع . فى المرة الثانية ، كان التجوال أمتع .. اليد فى اليد والروح فى الروح . فجأة حين وصلنا إلى نهاية الشارع وتذكرت المكان .. كان يغور فى منطقة مظلمة من الوعى .. أخذت أدقق وأتمعن فى المحلات ودكاكين الخضر والفاكهة . أليست هذه هى المنطقة التى كنا نأتى إليها أنا وأبى ، لبيع البصل ؟ نعم هى . كيف تنسى إلى هذه الدرجة .؟

قبل ذلك كنت قد تذكرت ، وحكيت لها عن مولدى بنبوءة من سيدنا الحسين ، حين زار أبى (الذى كان قد فقد الأمل فى الإنجاب) فى المنام ، فأخبره أنه سيرزق بمولود وعليه أن يسميه باسمه . حين ولدت كان جدى قد مات وكان لابد من تخليد اسمه ، فلم يسمنى باسم الحسين ، لكنه نذر أن يطاهرنى بجواره ، وهذا ما أذكره بكل وضوح . أول ألم عظيم فى حياتى .

وحكيت لها عن زيارتنا السنوية لمولد الحسين . وإقامتنا لمدة أسبوع

فى شـارع أم الغـلام على رصـيف الشـارع الضـيق نجلس وننام (فى الخدمة) حتى الليلة الكبيرة . وعدتها أن نزور معاً أم الغلام .. لم نفعل لأن القبلة جاءت فى المرة الثالثة أمام مسجد المعز . بعدها لم نذهب إلى هناك .

هل كانت القبلة مقدسة أم مسمومة .. قادتك إلى عشق مجنون أيقظ روحك ، أعاد إليك الأمل فى الحياة ، وعشت شهوراً من مشاعر الحب العنيف المضطربة المتقلبة بين المتعة والخوف والقلق والانتظار .. كان عشقاً بلا أمل فى المستقبل ، لكنك غامرت بالولوج دون حساب للعواقب . لم يكن أمامك غير ذلك . كانت ساحرة وكنت راغباً مسحوراً . وتذوقت السم المقدس ثم أخذت تتجرعه قطرة قطرة حتى تشبع جسمك . ومع ذلك فإنك لم تمت حتى الآن . هل يرعاك من كان ينبغى أن تكون سميّه ؟ أم أن الأمل الذى استيقظ فى الحياة ، أصبح قادراً على حمايتك وتحويل السم إلى بلسم ؟



شعر

كان غريباً بالنسبة لى أنا كثير الحبيبات ، أن أعرف شاعرة أو شاعراً يقرران الدخول فى علاقة حب ، بصفة خاصة من أجل كتابة ديوانين جديدين . غرابة الأمر كانت لسببين ، أنه اتفاق جاء نتيجة قرار ، والحب بالنسبة لى لا يحدث بقرار متعمد ، هو احتياج يفرض نفسه . والسبب الثانى أن الحب عندى قيمة فى ذاته لا يصح أن يتخذ وسيلة لأى غرض آخر بل إن الكتابة ذاتها وسيلة للحب . للتواصل .

أتخيل الآن كيف قضيا شهرهما فى الشقة التى استأجرها الشاعر بالإسكندرية .

عند دخولهما من باب الشقة تحاضنا بقوة ، وطال الحضن قليلاً أو كثيراً ، وانتهى بأن خلعا ملابسهما وتضاجعا لأول مرة فى حياتهما .. كانت مضاجعة متعبة ولكن لذيذة .. لمجرد التخلص من مكبوت ظل منذ بدا يلتقيان .

فى المساء خرجا إلى المدينة ، تجولا فى الشوارع .. ثم دخلا حانة وشربا قليلاً ، ثم عادا ليستكملا شرابهما فى الشقة .

فى الشقة عادا إلى القبلات والأحضان التى انتهت إلى مضاجعة أهدأ وألذ . بعدها نام الشاعر وحاولت الشاعرة لكنها لم تنجح ، فخرجت إلى الصالة وكتبت مقطعاً أول من قصيدة ، ليس لها علاقة بما حدث اليوم .

فى الأيام التالية ، بعد أن انضبط إيقاع النوم واليقظة بدا يفطران معاً ، ثم يخلو كل منهما إلى نفسه يقرأ أو يكتب أو يخرج ، حسبما يشاء ويعودان إلى الغذاء معاً . قد يناماان معا بعد الغذاء – أو قبله – أو لا يناماان . وتمر أيام دون أن مضاجعة ... وإن كانت الجسمان قد أخذا يتعرفان على بعضهما البعض بالتدريج عبر اللمس والتقبيل والأصوات المختلفة من غنج وفحيح وصوات وأنين .

كان كل منهما يكتب حسب طريقته . فى البداية حاولا أن يتجنبا قراءة ما يكتبه كل منهما للآخر .. ولكن مع الوقت بدا يتقاران .. الآخر يستمع لكن أحياناً يتدخل معبراً عن الأعجاب أو الرفض أو يقترح تعديلاً .

لم يحدث ملل حقيقى قبل أسبوعين ، وحين أدركا أن الملل قد حل بينهما ، قررا أن يتباعدا أكثر . كانت الشاعرة تبدو مكتئبة . أما الشاعر فقد بدأ لاهيا .

لم يكملا الشهر . عاد إلى العاصمة بعد الأسبوع الثالث .. كان الشاعر قد أنجز ديوانه . أما الشاعرة فلم تكتب سوى قصيدتين حزينتين.



أزواج وأفراد

كان الوحيد يجلس موليًا وجهه للبحر .. يقرأ الصحيفة . وكان الزوج يجلس – هو الآخر – فى مواجهة البحر والزوجة تقرأ الصحيفة وتحتسى البيرة ، وكان الولدان يجلسان إلى جانبى المائدة يلعقان الآيس كريم . وكان الزوج الآخر ، يجلس بموازاة زوجته كل منهما ينظر إلى البحر . وكذلك كان الزوج الثالث .

وعلى البحر مباشرة كانت امرأة وحيدة تحتسى القهوة ، مولية ظهرها للجميع ، وتميل بجذعها أحياناً لترى البحر تحت عينيها مباشرة .

وخلف المرأة كان محبان يثرثران بحماس ، بينما تزوغ نظرات الفتاة أحياناً .

وكنت أجلس وحدى وقد اشتريت أوراقًا وأقلامًا ، أنظر للبحر وللآخرين ، وأريد أن أكتب شيئاً ما .



فى المنتصف

كان المقهى خاليًا تمامًا ، لكن الكراسى والموائد كانت مرصوصة على رصيف يطل على البحر ، فقررت أن أجلس ، بعد وقت خرج عامل من الداخل ، ينظف الموائد ، فوجئ بوجودى فابتسم كان أسمر ذا ابتسامة جذابة .

جاء إلى المائدة المجاورة يواصل التنظيف ولم يسألني . سألته أنا : عندكم بن ؟ قال : أيوه يا باشا . كباية ولا فنجان ؟

قلت اللى يعجبك ، ثم تراجعت فكرت أننى أفضل الفنجان ، وخاصة مع القهوة الأولى .. كما أفعل فى المنزل .

لم يكن أمام المقهى محطة أتوبيس ومع ذلك وقفت قبالتى .. فى العشرينيات ربما ٢٨ .. ترتدى بنطلوناً أبيض وجاكيت أبيض وحقيبة تميل إلى البياض وصندلا رماديا وعلى رأسها الشارب أحمر . أخذت تشير بيدها دون جدوى للميكروباصات .

نظرت يمينى فوجدت محطة الأتوبيس على بعد نحو مائة متر ، وتساءلت لماذا لا تتحرك إليها . عرفت السبب حينما مر الأتوبيس . كان شديد الزحام .

لاحظت أن التاكسيات تهدئ سرعتها حينما تقترب منها ، لكنها لا تكترث بها .

بعد قليل بدأت تنظر فى ساعتها .. كانت التاسعة والربع صباحاً .. كان بيدها كشكول أو كتاب وترتدى نظارة .

انشغلت بعض الوقت بتأمل البحر والأسود الذى جلس بجوارى يتصفح جريدة ما ، وحين انتبهت لم أجدها فاتجه نظرى إلى اليمين فوجدتها تشير فى اتجاه المحطة قليلا ثم تتوقف فى منتصف المسافة .

طالت وقفتها وكثرت مرات نظرها إلى الساعة ، وبدأت انزعج . تمنيت لو أن السيارة الملاكى التى تعطلت بالقرب منها أصلحت وحملتها . لكن صاحبتها أصلحتها وتحركت دون أن تحملها رغم أنها كانت بجوارها تماما ، بل بدا لى للحظة أنها تحركت نحو الباب .

زاد انزعاجى ، فكرت لو أستطيع أن أفعل لها شيئًا لكن لم يكن ممكناً .. كان على أن أذهب .. فدفعت الحساب ومضيت دون أن يكون لدى أى تصور كيف ستحل مشكلتها .



عمى

كان عمى الحاج محمد أبو عبد الله رجلاً طيباً ، لطيفاً وحنوناً لكنه كان ثرثاراً لا يكف – إذا جلست معه – عن الحديث ، وفشاراً يمتلئ بالمبالغات التى تؤدى حتماً إلى الأكاذيب .

كان قبل أن يشيخ جزاراً تزوج مرة واحدة هو صغير لأنه وحيد أبويه ، وقد انجب من زوجته عدداً كبيراً من الذكور والبنات ، أنجب كل منهم أيضاً عدداً كبيراً من الذكور البنات .

لكن فيما عداه كان الموت حليف معظم أبنائه وهم فى أعمار صغيرة . فقد مات جميع الذكور دون الستين . أما هو فقد عاش حتى الثمانين بعد أن ماتت زوجته عن سبعين عاماً . كانت زوجته ولوداً ، ويحكى عنها أنها كانت تلد فى الفجر ، ويجدها الناس فى الصباح جالسة وراء طشت الكرشة تبيعها للناس ، دون أدنى إحساس بالألم .

بعد موت الزوجة فكر كثيراً فى الزواج ، كان يقول عايزين واحدة عشر وفيها شوية لبن . واتفق فعلا مع امرأة أربعينية من قرية مجاورة على الزواج . وحين جاءت تسأل عنه اصطادتها بناته وكرهوها فيه حتى لا تشاركهن معاشه بعد موته .

كان يجلس على دكة فى فراندة بيته يلعب – وهو العجوز – السيجة مع كل من هب ودب . وتكون هذه فرصته للثرثرة والفخر بما أنجز هو فى حياته ، وما أنجزه أولاده . فرغم أنهم كانوا فى وظائف صغيرة ،

ناهيك عن أكبرهم الذى عاش بلا مهنة ، وحاول أن يرث أباه فى الجزارة بعد أن توقف وفشل مثلما فشل فى كل المهن الأخرى ، رغم ذلك كان عمى يرى فيهم عباقرة يحكمون البلد . فهذا فى وزارة الحربية وهذا فى وزارة التعليم ، الوزارة كلها فى أيده ، والثالث سائق فى شركة للغاز لكنه يسيطر على الشركة كلها ومديرها لا يعصى له أمراً .

ويبدو أن هذه المبالغات لم تكن كلها أكاذيب ، لأن ابنه المدرس - مثلا - كان بالفعل على صلة بالمجموعة الطليعية فى الاتحاد الاشتراكى، وكانت له سلطة على زملائه وربما على الإدارة فى المركز بسبب لسانه السليط الذى كان يملأ به التقارير التى كانت يكتبها للأجهزة العليا .

كان يحبنى وكنت أحبه وأقدر دوافعه ، فكنت أنصت له فى البداية مستمتعاً ولكنى كنت أمل بعد وقت لأن حكاياته كانت تتكرر ، دون أن ينتبه ، ودون أن يكون ماهراً فى تنويع هذه الحكايات . وكنت أصل إلى الملل التام حين يكرر على مسامعى حكاية السمكة التى رأى رأسها فى الترعة وهو يتوضأ لصلاة العشاء ، ثم رأى زيلها وهو يتوضأ لصلاة الفجر .



تحايل

كانت أمى مقترة . ولست أدرى إن كان هذا طبعًا فيها ، أم هى ضرورات الحياة ، وأن كانت أميل إلى التفسير الأول ، لأنها كانت ، بما تحوزه نتيجة تقتيرها ، تشترى قراريط متتابعة من الأرض . هل كان ذلك ضرورياً ؟ أن نموت من الجوع من أجل هذه القراريط ؟ ولكن أليست هذه القراريط ضماناً لئلا نموت من الجوع مستقبلا ، يبدو أنها حسبتها هكذا . ألا نشبع اليوم لكى لا نموت من الجوع غداً .

كنا إذن نعيش على ما نأتى به من الحقل وما تنتجه البهيمة والطيور ، دون البهيمة أو الطيور نفسها ، فقد كانت مصدر إنتاج وليست سلعة نستهلكها . ولذلك نادرا ما كنا نرى اللحمة . أياً كان نوعها . واكتفت - فى المواسم - بذبح فرخة أو شراء ٢ كيلو كرشة أو ربع قلب .

ذات يوم جلست وسط الدار وحدى مهموماً وجائعًا . حولى كانت الفراخ والبط تملأ الباحة . رحت أتأملها . هذه كبرت ، وسوف تبيعها أمى غدا فى السوق . وهذه أيضاً كبرت ولكنها لن تبيعها فهى تبيض . وبيضها يفقس كتاكيت صغيرة . كان البط أكثر من الفراخ وتتدرج أعماره وأحجامه .

سرحت بذهنى - ربما بسبب الجوع - أتنالم نتناول لحمه منذ فترة طويلة . آخر مرة كانت عاشوراء أى منذ شهر تقريباً كانت فرخة . ولم

أتذكر متى آخر مرة تذوقنا فيها لحم البط ، وكانت منذ مدة طويلة وكانت بطة وليس دكراً . الدكر أغلى .

فجأة لمحة نملة تسير بجوار قدمي ، وفورا التقت النملة وأمسكت بدكر البط القريب مني ووضعت النملة في أذنه وانتظرت ، أخذ الدكر يدور . وكلما توغلت النملة في داخله أذنه إزداد دوار الدكر . ناديت على أمي الحقي البطة ، جاتلها دوخة . وراقبت أمي الموقف لمدة ربع ساعة ، ولما تأكدت ألا فائدة أخذت الدكر وذبحته .

وفي تلك الليلة أكلنا وجبة شهية شورية وفته وملوخية مع دكر البط . ورغم إحساسي بالذنب فقد استمتعت بالطعام . لدرجة أنني لم أتورع عن تكرار نفس الفعلة كلما تاقت نفسي إلى وجبه لذيذة .



ذرة مشوية

أحب الذرة المقلية . يسمونها فى المدن المشوية . وهى أدق لأنها تشوى ولا تقلى . لا يوضع تحتها زيت أو سمن . ومع ذلك ، ما زلت أحب قلى الذرة . حين يدعونى صديق أو قريب لنقلى ذرة . أكون سعيداً . وأسعد فعلاً حين أمارس الفعل . حفل جماعى بسيط .

يذهب من يحضر الأكواز من الحقل ، ويعد الباقون الأدوات اللازمة للنار : أفرع أشجار فى الغالب ، ونادراً قوالح ذرة جافة .

يجلس الجميع حول النار الموقدة بعد جهد . ثمة طرق متعددة لإيقاد النار وشعللتها والطريقة الأكثر انتشاراً هى أن تضع عود الكبريت المشتعل أسفل أفرع الشجر . ثم تنفخ فيها ، ليس بفيك فهو لا يكفى ، وإنما بغبيط الحمار يمسك اثنان بطرفيه ويحركانه يميناً ويساراً بقوة فيندفع الهواء إلى النار فتشتعل مصهللة .

توضع الأكواز فى المناطق المشتعلة ، ومع الوقت ، ومع الوقت تبدو علامات على أن هذا الكوز أو ذاك قد استوى فيلتقطه متولى النار ويقذفه إلى أحدكم، فى الغالب تكون أنت أول الملتقطين ، رغم أنك لست أكثرهم شهوة للطعام . تفتح الكوز بحذر بسبب سخونته ، ولأنك لست متأكداً أنه الأفضل . وتبدأ فى التذوق . تحاول – فى البداية – أن تفرط حبات الكوز بأصابعك لكن الكوز فى هذه الحالة – حتى إن كان

جيداً – لا يستجيب لأصابعك بسبب سخونته الشديدة ، فتلجأ إلى أسنانك تقضم سطوره من أعلى بحذر وتغوص فى السطور حتى أسفلها لتفتح لديك طريقاً – بعد ذلك – لتفريط الحبات ، كى تلتهمها –متلذذاً– حبة فحبة .



ثعبان

كنت وزوجتى بالغرفة نحتسى القهوة ونستريح قليلاً من عناء العمل لحين تواصل مأمول . كان وجهى ناحية الباب المفتوح . رشفة واحدة من الفنجان ، وجملة أولى لم تتم ، وأطل وجهه صغيراً ، ظننت أنه سحلية ، قمت إلى الباب أتأكد بعد أن خلعت الشبشب واستعددت لقتلها . عند الباب وجدته ، ثعبان متوسط الطول أسود اللون . بمجرد أن أحس بأصواتنا وبحركتى ، أنسحب فى الاتجاه الآخر، ولك أعد أعرف أين ذهب . لا شك أنه اختفى وراء الكراكيب فى الردهة .

وقفت خائفا ومحتاراً ؛ الكائن الوحيد الذى أخافه . وكانت هى أقل خوفا منى ، المرة الأولى التى ترى فيها ثعباناً خارج حديقة الحيوان . أما أنا فقد رأيت عدة ثعابين فى حياتى ، أحدهم كان ينام بجوارى ، طوال الليل غالبا .

كان ذلك فى بيتنا هذا قبل أن يهدم ويعاد بناؤه . كان مكونا من غرفتين فقط ، واحدة كبيرة نعيش فيها . وننام صيفا . على الأرض . على الأرض كنا نفرش الحصيرة قبل أن نشترى سريراً .

كان عمرى أنذاك فوق العشرين ، وأذكر أننى كنت فى زيارة إلى البلد . ولم تكن أمى موجودة ، كانت غاضبة من أبى عند أخيها فى القاهرة .

حين استيقظت فى الصباح ولممت الحصرية وجدته تحتها ممداً بينى وبين الحائط ، ورغم أن أبى لم يكن موجودا فقد حملت الحصرية بعيدا ووقفت ساكناً وهادئاً حتى تلوى ثم تحرك واختفى . يوما لم أكن خائفا على هذا النحو

ناديت على أمى . لم تكن موجودة . فنزلت قلقًا لأنى أتركها وحدها معه . فتحت الباب لأبحث عنها ، وجدتها قادمة من بعيد ، من اليسار . هناك منزل الشيخ الأمير . تذكرت . فى تلك المرة ذهبت إليه وأحضرته ليعزم على الثعبان ويتفل فى حلة ماء نرشها فى الموضع حتى لا يعود ثانية . نعم هو الشيخ الأمير يستطيع أن يمسك به .

قابلتها فى الطريق ، وبحثنا عن الشيخ الأمير . قال دعه يسرح ولكن ابنه شجعه على المجئ . كان يبدو متردداً أو غير متحمس . أين سنجده وسط الكراكيب ، أخيراً جاء . كانت اكتافها عارية . أغلقت عليها الغرفة وأخذنا نبحث عن الثعبان .

أزحنا الكراكيب واحدة وراء الأخرى . لم يظهر الثعبان ، قال الشيخ أن خوفى هيأ لى الصرصار ثعباناً . ذكرنى بنفس الموقف مع عمى . أكدت أننى رأيته . وأخيرا لمحته يتحرك . ثم اختفى ثانية . ظللنا نزيح الكراكيب حتى وجدناه وأخذ يتلوى ويتحرك بسرعة . ساهمت فى تدويخه بضربة عصا . نجح ابن الشيخ فى وضع حذائه على الرأس . لم يكن الثعبان نشطا ، تبدو بطنه ممتلئة . استكان وظل الابن يضغط

قال الشيخ لا تقتله . مد الشيخ يده وأمسك به من تحت الرأس مباشرة وخرج .

عند الباب وقف وخلع طاقيته – لم يعزم جهراً – وأخذ يخلع أسنان الثعبان واحدة وراء الآخرى ، قبل أن يلقيه فى النهر : ربنا يسهل له ، سيذهب إلى سلطانه ، مدد يا رفاعى .

عدت إليها ، وقد تخلصنا – إلى حد ما – من خوفنا ، فواصلنا احتساء القهوة ونحن نحكى عن الثعبان



ألوان

جلست فى شرفة الفندق العريشي المتواضع ، أرقب البحر من زاوية ضيقة ، وأنتظر هدوء المساء . انتهت ضجة الحفل الذى أقامه الفندق، لكن أصواتاً عالية جائتنى من اليسار ، حيث مستشفي مبنى من ستة أداور ، سُمى تخصصياً – فكرت فى معنى «تخصصى» ولم اهتد إلا إلى أنه «خاص» كانت الأصوات آتية من رجلين لأحدهما صوت أعلى من الآخر ، وأمرأتين ، يقفون بجوار سيارة « هيونداى» سوداء بابها الخلفى مفتوحاً .

استند ذو الصوت العالى إلى باب السيارة الخلفى المفتوح بينما كان الآخر أمامه فى الشارع يلوح بيديه . أما المرأتان فكانتا فى مقدمة السيارة ، استندت إحداهما إليها وواجهتها الأخرى فى الشارع .

كان الرجل الذى يستند إلى باب السيارة ، يرتدى جلباباً أبيض، فى حين كان الآخر يرتدى قميصا مشجراً وبنطلوناً . وكانت المرأة التى تستند إلى مقدمة السيارة تلبس «بونيها» وبلوزة بيضاء بأكمام وجونلة ، فى حين كانت الأخرى ترتدى حجاباً ملوناً مع قميص واسع لم أر ما يكمله من أسفل .

خمنت أن الأخيرة زوجة الأول ، وأن الأولى زوجة الثانى .

انتظرت طويلا حتى يكملوا حديثهم وشغلت نفسى بأمور أخرى جرنى إليها تفكيرى ، ولكن سيارة عابرة بجوار المتحاورين نبهتنى إلى

أنهم قد ينهون حوارهم وينطلقون . وبالفعل ، تحرك الرجل والمرأة اللذان كانا فى الشارع تفادياً للسيارة . وبعد خمس دقائق كانوا يسلمون على بعضهم البعض وينطلق كل زوج وحدة .

انطلق ذو الجلباب وذات البلوزة البيضاء ، فى الهيونداى ، وسارعت المحجبة وراء ذى القميص المشجر إلى سيارة بيك أب نصف نقل .



حلاق

ظلت علاقتى بالحلاق ، علاقة غير مستقرة منذ تركت قريتى مع ذهابى إلى الجامعة منذ ثلاثين عاما ، لم استطع ابدا الاستمرار مع حلاق واحد ، حيث اعتبره حلاقى .. أشعر أننى غريب .. وهذه على نحو ما علاقة حميمة .

شخص ما يمتلكنى لمدة ساعة ويفعل برأسى ما يشاء .. وأنا - غير الخبير - بأصول الحلاقة وموضوعاتها ، لا أستطيع التدخل أو التعديل ، وأنا - غير الاجتماعى - لا أجيد الحديث مع ثرثار ، مثل الحلاق ، فى أى شىء و فى أى وقت .

تعودت بعض الوقت على حلاق فى ميدان الدقى ، حتى مات وجاء ابنه بدلا منه ، فلم استرح له .

على كل حال ، حتى فى ذلك الوقت كنت أخونه .. وانتهز فرصة وجودى فى القرية لأحلق .. لكنى أيضا لم أكن قد استقررت مع حلاق بعينه . حتى جاء شبل ، فاستأجر المحل المواجه لبيتنا . نزلت إليه .

هذا المحل كان دكاننا الذى نخزن فيه الذرة قبل أن يموت أبى . باعه لخالى الذى هده وأعاد بناءه محلين احتل أحدهما بائع البان ، ولم يستمر طويلا ، واستأجر شبل الأخر . يطل عليه شباك غرفة

مكتبـــى فـأعـرف إن كـان مـوجـودا أم لا .. مـشـغـولا أم لا .. أطــل عليه وأخبره أننى هنا ، وأننى أنتظر حتى ذفرغ ، وحين يفرغ ينادينى فـاذهب اليـه يحلق لـى بهـدوء ويثـرثر قلىلا ، فى السيـاسـة وأحــوال البلد، ويأخـذ نصـيحـتى فى أمـور حـيـاتـه .. وفى النهـايـة أنقــده الجنيهات الخمسة التى ظلت هى هى منذ أول حلاقة حتى الآن . أراها أكثر من كافية لحلاق قروى ، بينما كان حلاق الدقى يطالبنى بأكثر منها .

لا أذهب إليه فى أوقات الذروة ، فقط حينما لا يكون لديه زبائن ، حتى لا أنتظر كثيرا فى الأعياد أنتظر حتى ينتهى العيد ، وينام طويلا ليعوض ليالى السهر التى قد تمتد إلى ثلاث ليال .

الآن أشـعـر بالامـتنان لشبل ولدكـاننا القـديم الذى يعطينى مـتـعـة مركبة . أن يكون شكلى مقبولاً لدى الآخرين .. وألا يعايرنى زملائى لأنى أحلق عند حلاق الحمير (وأن كان هذا لا يزعـجنى كثيراً ، فقد حدث أن فعل بى أبى ذلك ولم أرفضه) .

ومتعة أن يكون شكلى متسقاً مع ما أشعر به وأعيشه .. ومـتعـة أن أحقق ما أريد بسرعة ، فما زال هذا طبعى رغم كل ما بذلت من جـهود للتخلص منه ومتعة عدم الاضطرار للبحث عن حلاق فى مدينة مازلت تشعر أنك غريب عنها .

ومتعة الراحة من الاجتهاد فى تحديد المبلغ الذى تدفعه .. ومتعة القدرة على أن تكون على طبعيتك حين تذهب إليه .. بأى ملبس ، وفى الأوقات التى تناسبك .

وأخيراً متعة أن لديك فى النهاية حلاق .. خصوصى .

❖❖❖

وش القهوة

كل يوم يبدأ صباحي الحقيقي بوش فنجان القهوة . قبل ذلك ، يكون النوم هو المسيطر ما يزال نادراً ما أستطيع الكلام قبل أن يبدأ صباحي .

يتحدد صباحي ويومي بقدرتي على المحافظة على وش فنجان القهوة ، وهي ليست مسألة هينة ، بل شديدة التعقيد .

أضع الماء أولا في الكنكة . وينبغي ألا يزيد أو ينقص عن كمية محددة تسمح باستيعاب البن والسكر دون أن يفيض الماء عن حافة الكنكة ، أو أن ينقص عن حجم الفنجان ، فيبدو الفنجان – فيما بعد – أقل كميا وجماليا مما يرضيك .

تضع الكنكة بالماء على نار هادئة ، أكثر النيران المتاحة هدوءاً في المكان ، ثم تبحث عن الملعقة الصغيرة ، وعليك أن تختار تلك التي يسمح حجمها بالدخول في الكنكة عند التقليب ، ثم تأخذ بها ملعقة من السكر تضعها في الكنكة، وأخرى من البن ، وتنتظر قليلا حتى يختفي البن في الماء ، ثم تبدأ في التقليب الجيد ، لأن هذا هو الذي يجعل البن والسكر يذوبان في الماء بالقدر الذي لا يترك أثرا لحبيبات البن على لسانك حين تشرب .

بعد ذلك عليك أن تنتظر المرحلة الفاصلة : الحصول على وش حقيقي . وأنت هنا في حالة صراع بين نقيضين ، أن تعطي النار

الفرصة الكافية لإتمام ذوبان البن والسكر فى الماء ، وأن تضمن التدخل فى الوقت المناسب قبل أن يفور الوش ، لترفع الكنكة ، وتصب الوش فى الفنجان ، الذى تكون قد أعددته قبل ذلك فى مكان قريب من الكنكة –فى الغالب – فوق عين البوتاجاز القريبة من تلك التى عليها الكنكة.

يحتاج الإمساك بهذه اللحظة الدقيقة إلى مجهود ضخم لمتابعة غليان الماء فى الكنكة ، وحركة فقاقيع الهواء التى تحرك جزيئات الوش من جوانب حافة الكنكة الدائرية . هذا إذا لم تكن قاعدة الكنكة مضبوطة فى وضعها على وسط عين البوتاجاز . أما إذا كانت مضبوطة فإن ضغط الهواء يأتى فى الوسط ليصعد الوش ككتلة متماسكة إلى أعلى .

إذا نجحت فى الإمساك بهذه اللحظة ، وقطفت الثمرة ، تكون قد أنجزت المهمة الكبرى ، وما يتبقى بعد ذلك سهل . أن تعيد الكنكة إلى النار ، حتى يغلى ما بقى من القهوة ، وحين يصعد إلى الحاف ، تحمله وتصبه فى الفنجان ، الذى يكون قد احتفظ – فى قاعه – بالوش منتظراً البقية ، وحين تنزل البقية إلى أسفل ، يصعد الوش إلى أعلى.

إذا نجحت فى هذا فمعنى ذلك أنك قد استيقظت فعلاً ، وأن حواسك تطاوع ذهنك ، وأن ذهنك فى حالة من التنبه والسيطرة ، تسمح لك بأن تبدأ يومك .

أمـا إذا لم تنجح وفـار منك الوش ، أو لم يتم تمثل البن والسكر فى الماء بالقـدر الكافى ، فـهـذا معناه ، أنك لك تسـتيـقظ ، وفى الغـالب لن تسـتيقظ بقيـة اليوم . وأنه – أى اليـوم – سيكون يومـا رديئـًا كمـعظم الأيام.



صخرة

فى الطريق إلى رفح ، مررنا بمدينة الشيخ زويد ، مدينة صغيرة بنيت بجوار ضريح الشيخ الصالح ، كانت السوق عامرة فخاض الأتوبيس بين البضائع والبشر حتى وصلنا بصعوبة إلى صخرة « موشى ديان» . فى الطريق إليها كان الدليل قد أخبرنا أنها صخرة على شكل فلسطين مقلوبة أتى بها موشى ديان ونصبها فوق هضبة هنا تخليداً لذكرى ابنه الذى استشهد فى حرب ٧٣ . قال أيضا أننا لا نزورها لهذا السبب ، وإنما تخليداً لذكرى شهيدنا الذى قتل السبعة الذين كان بينهم ابن ديان ، لكن الدليل لم يستطع تذكر اسم هذا الشهيد . حين وصلنا قال أنه ممنوع تخريب هذه الصخرة طبقا لنص اتفاقية كامب ديفيد ، للأسف هكذا قال .

نزلت من الأتوبيس ولم أرغب فى الصعود إلى الصخرة ، فقد ألقيت نظرة على جرانيتها الأحمر وشكل فلسطينها ، ودخلت كافيتريا النخيل وطلبت قهوة ، كان المقهى لطيفًا ، صنعت جدرانه وسقفه من البوص . وموائده من جريد النخل فيما عدا المائدة التى جلست عليها ، كانت من الخشب مطلية بزيت أبيض صلب ، أغرانى بأن أخرج القلم الذى كنت قد اشتريت بالأمس ، وقد أعجبنى أنه يكتب بخط عربى عريض أسود. أخرجت القلم وكتبت : تسقط إسرائيل وكامب ديفيد .

* * *

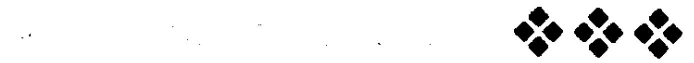
قبل أن نصل إلى رفح مررنا بمستعمرة ياميت التى ظلت آثار دمارها قائمة هى ومزرعة الزهور التى كانت بجوارها منذ عشرين عاما . درنا حول المستعمرة حتى وصلنا إلى المصنع الوطنى لتعبئة وتغليف الأغذية والمشروبات ، اشترينا زيت زيتون ، وليمونا وزيتونا أسود وأخضر ، تذوقناه وكان طعمه لذيذاً . كنت أشعر بالحصر . بحثت عن دورة مياه فلم أجد ، انتهزت فرصة ابتعاد الآخرين وتواريت خلف شجرة قصيرة بقيت خضراء وتبولت على حدود المستعمرة ، وفعل آخرون مثلى ، حين خرجنا لاحظت عند البوابة لافته تشير إلى أن المصنع قد أقامه جهاز الخدمات العامة ، وفهمت أنه الجهاز التابع للقوات المسلحة ، فيما بعد عرفت أنه ملك لابن أحد كبار المسئولين .

* * *

لم تكن رفح كبيرة ، شارعها التجارى قصير اسمه صلاح الدين ، امتداده على الناحية الأخرى من الحدود التى قسمت إلى بلدة نصفين ، وكذلك أهلها . ولكنها سمحت لسبعة فلسطينيين من كل جانب بالانتقال إلى الجانب الآخر كل يوم ، على أن يعودوا قبل الخامسة مساء .

توقف الأتوبيس عند بوابة صلاح الدين على الحدود. كان العلم المصرى ، وعلى الناحية الأخرى العلم الفلسطينى ، وعلى يمينه علم دولة إسرائيل . وقفنا عند البوابة ننظر إلى الجانب الآخر بعض الوقت ، ثم تجولنا فى الشارع واشترى بعضنا عجوة وسودانى وأعشابا وفستق ثم

عـدنا إلى الأتوبيس الذى خـرج بنا من المدينة ، لكنـه فـجـأة عـاد لأن واحدا ممن اشتروا سودانى اكتشف أنه فاسد ويريد إعادته للبائع ، إحتج الركاب لكنهم رضخوا . حين توقف الأتوبيس ونزل الزميل يبحث عن البـائع . نزلت لأدخن سيـجـارة . وفى لحظـة تغلبت على ترددى الذى دام ساعـة ، والتقطت صـورة لبوابة صـلاح الدين وفوقـهـا علما مـصـر وفلسطين ، دون علم إسرائيل .



الفهرس

